هجاء ذوي القربى
من الجاهلية إلى نهاية العصر العباسي
دراسة في أثر التمدّن على بنية ثقافة القبيلة

د. إبراهيم بن محمد أبا نمي
قسم الأدب - كلية اللغة العربية - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

أنظر من خلال هذا البحث في جملة نصوص شعرية، قدّرتُ - بعد تأمل - مخالفتها للثقافة العربية وقيمها، إذ لا يستنكف أصحابها من هجو الأقارب! على خلاف المنتظر من الفخر بهم وتعظيمهم، فافترضت أن مثل هذه النصوص يمكن أن تنير جوانب من البنية الاجتماعية الأسرية والعامة، وتكشف عن ظواهر من الحياة الخاصة والعامة في المجتمع العربي القديم. وسأتلمّس من خلال هذه النصوص القيمَ العربيّة، وكيف ناورت تلك النصوصُ القيمَ، وكيف تعاملت تلك القيم مع من يضعها موضع السؤال ويشكك في إطلاقية قيمتها، ويخرج عليها، وسأترسّم كيف تطورت تلك النصوص مع تطوّر بنية تلك القيم وبنية المجتمع العربي بعد البعثة المحمدية، وبعد تكوّن الرابطة الإسلامية التي أسهمت خلال القرن الهجري

(قدم للنشر في ١٤٣٣/٥/١٨هـ، وقبل للنشر في ١٤٣٣/١١/٢١هـ).

الأول في توهين الرابطة الوحيدة في الجاهلية رابطةِ القبيلة، وتعزيز رابطة أخرى هي أخوة الدين، وما نشأ على إثرها من أبنية مجتمع المدينة الإسلامية، وما جرى شيئًا فشيئًا من الجلاء إلى المدن والاستقرار فيها، والاعتماد ثمّة على الذات، وبروز (الفردية) التي لا ينتمي فيها الفرد إلى قبيلته إلا برابطة الثقافة، وصلةِ الرحم لمن يتمسّك بأخلاق الدين. أما على مستوى الممارسة فلم تعد القبيلة في المدينةِ ضرورةً وجوديّة[١].

وقد قدّرت مبدئيًا أن نصوص (هجاء ذوي القربى) تعدّ ذخيرةً لمن أراد فهم وتفكيك علاقة الجاهليّ الراسخة بثقافة القبيلة، ومدى تخلخل تلك العلاقة في القرن الأول، وتطوّرها في القرن الثاني وما بعده؛ إذ وُجدَت تلك النصوص منذ الجاهلية وتسلسلت قرنًا فقرنًا، فهل ظلت مَعانيها وبنياتها الثقافية على وتيرة؟

هذا ما يحاول البحث الإجابة عنه.

وقبل أن أشرع في هذا البحث أشير إلى بحثين سبقني بهما محمد بن سليمان السديس[٢]، الأول (الخؤولة في

(١) أنبه على أن مفهوم الفردية الذي أستعمله لا صلة له بمفهوم الفردية في الفكر الرومانسي الحديث، الذي هو مفهوم أنتجته الثقافة الاجتماعية المرتبطة بالحضارة الصناعية، وفيه تمرد على قيم الجماعة في الفكر الكلاسيكي الغربي.

(٢) د. محمد بن سليمان السديس، الخؤولة في الشعر العربي حتى آخر العصر الأموي، **مجلة كلية الآداب بجامعة الملك سعود**، مج١٣، الرياض، ١٤٠٦هـ، ص٢٥-٥٩؛ منزلة ابن العم عند العرب في ضوء الشعر حتى آخر العصر الأموي، **مجلة جامعة الملك سعود** (الآداب)، مج ٨، الرياض، ١٤١٦هـ، ص٣-٣٥. ثم نشرهما مع جملة من بحوثه في كتاب: **في أفياء الشعر منذ الجاهلية حتى العصر الأموي**، كتاب الرياض (٨١-٨٢) أغسطس سبتمبر ٢٠٠٠م، ص٤٦١-٥٠٥.

الشعر العربي)، والثاني (منزلة ابن العم عند العرب)، ودراستي تختلف عنه بحثيه من جهات، أولها: اقتصارهما على الشعر الأموي وما قبله، أما دراستي فتنفتح على الشعر العباسي، وثانيها: أنهما اقتصرا على الخال ثم ابن العم، وأنا أحطت بكل المهجوّين من ذوي القربى، وثالثها: أنهما تناولا أغراض الشعر عامة، أما دراستي فتتناول الهجاء خاصة، ورابعها: أنهما لا يكادان يذكران الهجاء، وبحثي متمحّض له، وخامسها: أنهما مسّا النصوص مسًّا توصيفيًّا رفيقًا دون غوص في بنياتها الثقافية، وتفهّم لمحرّكاتها القيميّة، وهو ما أعوّلُ عليه من حاصل هذه النصوص. على أن جهده قيّم، وتنقيبه عن النصوص تنقيب العالِمِ الطَّلَعَة.

وثمّة دراسات أُخَر تتماسُّ شيئًا ما مع موضوع هذا البحث، وإن لم تنح نحوه، أهمها: دراسة أحمد إسماعيل النعيمي (القبيلة في الشعر الجاهلي)[٣]، وقد تحدّث فيها عن النظام القبلي، وأهم ما توقفت عنده في دراسته حديثه عن العقد الاجتماعي بين الشاعر وقبيلته، الذي إذا اختلّ وقع الهجاء. ودراسة إنعام داود سلوم (الأمومة والبنوّة في التراث العربي)[٤]، وقد أشارت فيها إلى طرف من الهجاء في نحو إحدى عشرة صفحة، وردّته إلى العقوق دون غوص في بنياته المكوِّنة.

(٣) أ. د. أحمد إسماعيل النعيمي، **القبيلة في الشعر الجاهلي**، دار الضياء، الأردن، ١٤٣٢هـ.

(٤) د. إنعام داود سلوم، **الأمومة والبنوّة في التراث العربي حتى نهاية القرن الأول الهجري**، دار الضياء، الأردن، ط١، ١٤٢٧هـ.

الفرد والقبيلة:

لقد كان للقبيلة مكانة عليا في المجتمع القبلي، إذ لم يكن الفرد فيها قادرًا على العيش دون الارتباط بها ارتباطًا عضويًا لا ينفصم، ولم يكن له أن يعيش فردًا دون حماية القبيلة، وتكافلها المعيشي، وهيبتها عند سائر القبائل، فالبنية الاجتماعية والاقتصادية والجغرافية في جزيرة العرب كانت هشة لا يمكن أن يعيش فيها الإنسان وحده؛ ولذا فإن من اضطر إلى مفارقة قبيلته يجاور قبيلة أخرى طالبًا أن تضيفه إليها وتحميه، وربما منحته اسمها، يقول الأعشى (ت٧هـ) واصفًا معيشة الفرد:

متى يَغْتَربْ عن قَوْمِهِ لا يجد له
على من لهُ رهطٌ حواليهِ مُغضبا
ويُحطَم بظلمٍ لا يَزَالَ يَرَى له
مَصَارِعِ مَظْلُوم مَجَرًّا ومَسْحَبا
وتُدْفَنُ منه الصَّالحاتُ، وإنْ يُسئَ
يكُنْ ما أَساءَ النَّارَ في رأَسِ كَبْكَبا
ولَيْسَ مُجيرًا، إنْ أَتَى الحَيَّ خائِفٌ
ولا قائلاً إلاَّ هو المُتَعَيَّبا[٥]

هذا الوصف في شأن مقيم بين ظهراني جماعة ليست بجماعته، فما بالك بالفرد المُنْبَتّ؟

(٥) الأعشى الكبير. ميمون بن قيس، **ديوانه**، شرح وتعليق: د. م. محمد حسين، مكتبة الآداب، الجماميز، ص١١٣.

لقد كانت إحدى العقوبات أن تخلع القبيلة أحد أفرادها، وتنزع عنه غطاءها وحمايتها، فيعيش صعلوكًا لا ينتمي إلا لنفسه، ويحاول أن يتكيّف مع هذه الحياة الفردية المباينة لحياة سائر العرب، وإن من أسباب الخلع أن يقدم المخلوع على أفعال لا تتفق مع قيم القبيلة، فتعد تهديدًا خطيرًا للبنية الاجتماعية الجماعية التي لا تجيز عمل الفرد ما لم يكن متلائمًا مع اشتراطات الجماعة، ولعلي هنا أتفق مع كلود ليفي ستراوس (Claude Levi-Strauss) في قوله: "إن الجماعة الاجتماعية لا تتكوّن إلا بتميزها عن الأسرة... الهم الأول للمجتمع تجاه الأسرة ليس أن يحميها ولا أن يقويها، بل أن يحذرَها، وأن لا يعطيها الحق في وجود مستقل أو دائم"(٦)!، فإذا كان ذلك حال المجتمع ذي القيم المتفق عليها مع الأسرة فما بالك بحاله مع الفرد(٧)؟!

وبناء على ما سبق فإننا نكاد نجد (الأنا) في الشعر الجاهلي مفقودة، وإذا وجدت ألفيناها (أنا الجماعة) بحيث يذوب الفرد في جماعته، حتى يكاد ينسى ذاته!، يمثّل ذلك قول البرّاق بن روحان (ت١٦٠ ق.هـ تقريبًا):

(6) Claude Levi-Strauss, "Man، Culture and Society", cite par Luc thore, Revue de l.action populaire (Mars 1965), P.312.

نقلا عن: الطاهر لبيب، **سوسيولوجيا الغزل العربي: الشعر العذري أنموذجًا**، ترجمة: المؤلف، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط١، ٢٠٠٩م، ص٣٥.

(٧) انظر: هاشم محمد المشهداني، **العصبيّة في ضوء الإسلام: دراسة وصفية تحليلية**، دار الثقافة، الدوحة، ط١، ١٤٢٣هـ، ص٢٢٠.

وهل (أنا) إلا واحد من ربيعة
أعز إذا عزوا وفخرهم فخري[٨]

وقول دريد بن الصمة (ت٨هـ):

وهل (أنا) إلا من غَزِيَّةَ إن غوت
غَوَيت وإن ترشُد غزية أرشدِ[٩]

وقول ضَمْرَة بن ضمرة النهشلي (ت؟):

وما (أنا) بالساعي ليحرز نفسه
ولكنني عن عورة الحي ذائد[١٠]

وهكذا فإن الشعراء لا يرون ذواتهم إلا من خلال الجماعة، ويتفاخر شاعرهم بأبيه وجدِّه وجدِّه الأعلى وأخيه وابن عمّه، ينقّب عن كلِّ محمدةٍ في قبيلته ليثبتها؛ إذ محمدة كل فرد في القبيلة محمدة لكل أفرادها، ومذمة كل فرد فيها مذمة لكل أفرادها، عزّ القبيلة عز للأفراد، وغوايتها غوايتهم، وما يعيبها يعيبهم، ولا معنى لأن يسلم الفرد إذا هتكت عورة

(٨) البيت من أبيات ثلاثة أوردها لويس شيخو في (شعراء النصرانية)، وألمح إلى أنه أخذها من (جمهرة أنساب العرب) للكلبي، وليست ثمّة!، وقد اجتهدت في تطلاب مصدرها فلم أحط بها!. انظر: لويس شيخو، **شعراء النصرانية قبل الإسلام**، دار المشرق، بيروت، ط٤، ١٩٩١م، ص١٤١.

(٩) ابن قتيبة، **الشعر والشعراء**، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٧هـ، ٨٣٧/٢.

(١٠) المفضل الضبي، **المفضليات**، تحقيق: أحمد محمد شاكر وعبدالسلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، ط٦، ص٣٢٦.

الجماعة؛ ولذلك كان كل فرد في القبيلة يدفع الأذى عن قبيلته، بل عن كل فرد فيها لأن ما يصيبه يصيبهم جميعًا[١١]، ولا يترددون في ذلك، سواء أكان حقا أم باطلا، يقول رجل من بني العنبر - يقال إن اسمه قريظ بن أنيف[١٢] -:

لا يسألون أخاهم حين يندبُهُم

في النائبات على ما قال برهانا[١٣]

ويقول معقل بن خويلد السهمي (ت؟):

(١١) أذكر هنا قول النبي ﷺ في حديث عائشة رضي الله عنها قالت: "استأذن حسّان النبيَّ ﷺ في هجاء المشركين، قال: "كيف بنسبي؟!" فقال حسان: لأسلنك منهم كما تسلّ الشعرة من العجين!". رواه البخاري (رقم الحديث ٣٥٣١). وإن في هذا لبيانًا لارتباط الفرد بقبيلته وأن ما يصيبها يصيبه، وفيه أيضًا إعلان ببدء عهد ينسلّ فيه الفرد من قبيلته. البخاري، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، للحافظ ابن حجر العسقلاني، تحقيق: عبدالقادر شيبة الحمد، ط١، ١٤٢١هـ، ٦/٦٣٩.

(١٢) لم يسمّه ابن قتيبة، ولا ثعلب في مجالسه، ولا أبو تمام في حماسته، ولا المرزوقي في شرحها، وسماه التبريزي (قريظ بن أنيف)، وتبعه صاحب التذكرة السعدية. انظر: ابن قتيبة الدينوري، عيون **الأخبار**، دار الكتاب العربي، بيروت، ١/١٨٨؛ ثعلب، أبو العباس أحمد، **مجالس ثعلب**، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، دار المعارف، مصر، النشرة ٢، ص٤٠٥؛ الخطيب التبريزي، يحيى بن علي، **شرح ديوان الحماسة**، عالم الكتب، بيروت، ١/١١؛ المرزوقي، أحمد بن محمد، **شرح ديوان الحماسة**، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١١هـ، ١/٢٩؛ العبيدي، محمد بن عبدالرحمن، **التذكرة السعدية في الأشعار العربية**، تحقيق: عبدالله الجبوري، مطابع النعمان، النجف، ١٣٩١هـ، ص٥١.

(١٣) انظر الهامش السابق.

فـأمـا بنو لحـيـان فـاعلم بـأنهم

بنو عـمنا من يـرمـهم يرمنـا مـعـا[١٤]

ويقول الآخر:

إني وإن كـان ابن عـمـي كـاشـحًـا

لمـــراجـــمٌ مـــن دونِـــهِ وورائِـــهِ[١٥]

ومن جملة ما تدفعه القبيلةُ أفرادُها عن أنفسهم الهجاء، كانوا يتحاشونه أن يقع فيهم، ويتحرزون منه كل التحرز، "ولأمر ما بكت العربُ بالدموع الغِزار من وقعِ الهجاءِ"[١٦]، "وكان أحدهم في الفلاة القفر... يحمي نفسه عَن كلمة يُعاب بها!"[١٧]، كانوا يدفعون الهجاء بالفعل الحسن، وبالحفاظ

(١٤) السكري، الحسن بن الحسين، **شرح أشعار الهذليين**، تحقيق: عبدالستار أحمد فراج، ومحمود محمد شاكر، مكتبة دار العروبة، القاهرة، ١/ ٣٧٥.

(١٥) البيت من أبيات تنسب لجماعة، منهم الهذيل بن مشجعة البولاني، والراعي النميري، انظر: الراعي النميري، ديوانه، تحقيق: راينهرت فايبرت، دار النشر: فرانتس شتاينر بفيسبادن، بيروت، ١٤٠١هـ، ص٢٩٨؛ الجاحظ، عمرو بن بحر، **فصل ما بين العداوة والحسد** (جزء من المجموع: رسائل الجاحظ)، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١١هـ، ١/ ٣٦٢؛ المرزوقي، **شرح ديوان الحماسة**، ٤/ ١٦٨٠.

(١٦) الجاحظ، عمرو بن بحر، **الحيوان**، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١/ ٣٦٤؛ وانظر: أبو حيان التوحيدي، **أخلاق الوزيرين**، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي، دار صادر، بيروت، ١٤١٢هـ، ص٩٠.

(١٧) ابن حمدون، محمد بن الحسن، **التذكرة الحمدونية**، تحقيق: إحسان عباس وبكر عباس، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٦م، ٥/ ٩٦.

على القيم العليا، فإذا اضطروا دفعوا الهجاء بالهجاء، فإذا كانت القبيلة تتحرز غاية التحرز من هجاء الأبعدين إياها فما بالك بتحرزها من أن تُنْخَر من داخلها بهجاء أبنائها بعضهم بعضًا! ومما يروى في هذا السياق خبرُ قريش مع ابن الزبعرى حين هجا ناسا من بني قصي، فغضبوا، ولكن حكماءهم سعوا في رأب الصدع، وقطع دابر مثل هذا الخلل بأن كادوا يصطلحون على أن يسلِمَ كلُّ قوم من قريش الشاعرَ المنتسب إليهم إذا هجا قوما آخرين[١٨]. وهو خبرٌ يثبت وعي القبيلة بضرورة أن تحمي نفسها من داخلها بسنّ النظم الضامنة تلك الحماية. ومما يؤكد وعي الشعراء بذلك أبياتٌ لطرفة (ت. نحو٦٠ق.هـ) في معلقته كاد يهجو فيها ابن عمه مالكًا ثم قال له:

فَذَرني وَخُلقي إِنَّني لَكَ شاكِرٌ
وَلَو حَلَّ بَيتي نائِيًا عِندَ ضَرغَدِ[١٩]

فهو يترفّع بخلقه عن أن يهجو ابن عمه، وإن ضارّه، ومما يؤكد أنهم إنما يحجمون عن هجاء أقاربهم لأن ذلك يعد هجاء لذواتهم، أبياتٌ لمعن بن أوس (ت٦٤هـ) قالها في ابن عمّ له:

(١٨) انظر: البغدادي، محمد بن حبيب، **المنمق في أخبار قريش**، تحقيق: خورشيد أحمد فاروق، سلسلة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند، ١٩٦٤م، ص٤٢٦-٤٣١.

(١٩) الأنباري، أبو بكر محمد بن القاسم، **شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات**، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، ط٦، ص٢٠٩.

فلولا أنَّ أمَّ أبيه أُمِّي
وأن من قد هجاه فقد هجاني
وأن أبي أبوه لذاقَ منّي
مرارةَ مبردي ولكان شاني
إذًا لأصابه منِّي هجاءٌ
يذلُّ به الرويُّ على لِساني(٢٠)

فإذا كان الحال ما تقدّم فإن الفرد في قبيلته أولى أن يحفظ قبيلته/ أفرادَها، وأن يكفّ أذاه عنها، وألا يسمها ميسم سوء يرتد إليه لا محالة، ولكننا - على هذا - نجد في الشعر هجاء لذوي القربى!، الأب والابن والأخ ...، وهو لافت للنظر؛ لمخالفته منظومة القيم التي قامت عليها القبيلة، وليس ذلك القول مقتصرا على الشعر في القرن الثاني وما بعده حيث ظهرت الفرديّة في الحياة المدنية، بل إن نصوصه متوافرة منذ الجاهلية، وتكاثرت شيئا فشيئا حتى أُلِفت في العصر العباسي، واشتهر شعراء بهجاء أقاربهم، بل تنافسوا في ذلك!، وفيما يلي رصد لهذه الظاهرة الشعرية، ومقاربة لفهم محرّكات القول الثقافية والنفسية.

رأس القيم القَبَلِيّة: الفرد جزء من الجماعة

إن المادة اللغوية التي اشتقت منها (القيمة) ذات دلالة وسائطية، أي أنها ليست ناجعة ومقدرة في ذاتها، أو مطلقة

(٢٠) معن بن أوس المزني، **ديوانه**، صنعة: د. نوري حمودي القيسي وحاتم صالح الضامن، مطبعة دار الجاحظ، بغداد، ١٩٧٧م، ص٧١-٧٢.

غير مقيدة، بل هي تواضع ثقافي واجتماعي نسبي، وإن المتأمل في القيم التي حكمت نظام القبيلة لا يبطئ مستنتجًا أن قيمتي (الكرم) و(الشجاعة) - وهما في الغالب قيمتان علائقيتان بين القبائل والجماعات - هما القيمتان الأعلى شأنًا في دائرة القيم، فهما "قيمتان مركزيتان... ولا تقوم الحياة القبلية إلا بهاتين القيمتين... لقد كان الكرم - وما يزال لدى البدو - قيمة وجودية أشبه ما تكون بالحفاظ على النوع"(٢١)، والشجاعة مثل الكرم في أهميتها الوجودية في ذلك المجتمع الذي تتحكّم فيه قاعدة (البقاء للأقوى) في أعنف صورها، وإذا نظرنا في بحث د. محمد السديس وجدناه يصنّف التبعات التي يحملها الشاعر لابن عمه تحت مواقف إيجابيّة سبعة: (حفظ حقه، وإكرامه، ونصره، والصفح عنه، وكف الأذى، وإيواؤه، والأخذ بثأره)(٢٢)، وهذه السبعة كلها تدخل في القيمتين الرئيستين (الكرم والشجاعة)، ولا عجب؛ فإن هاتين القيمتين السلوكيتين ضرورتان من ضرورات الحياة في المجتمع القبلي الصحراوي، إذ هو مجتمع تكافلي، لا يطيق الفرد فيه عيشًا ما لم يحظ من الأفراد الآخرين بـ(الكرم والشجاعة)؛ فيكون لزامًا عليه ليحفظ وجوده أن يحفظ هاتين القيمتين من الاختلال فيبادر غيره بالكرم والشجاعة، فإذا أقررنا بذلك

(٢١) عبدالله الغذامي، **النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء وبيروت، ط٢، ٢٠٠١م، ص١٤٥.

(٢٢) انظر: د. محمد السديس، **منزلة ابن العم عند العرب**، ص٩.

أسلَمَنَا إلى ردّ تلك القيمتين المهمتين إلى قيمة واحدة هي (الفرد جزء من الجماعة) وهي قيمة تتجاوز مفهوم الانتماء والعصبيّة إلى ما هو أعمق من ذلك، أعني الأهمية الوجودية القصوى بحيث لا يمكن أن تكون للفرد هُويّة أو وجود دون جماعته، وتنتظم القيمتان الرئيستان (الكرم والشجاعة) تحت هذه القيمة انتظامًا ظاهرًا، كما تنتظم تحتها أيضًا كل القيم الثانوية الأخرى، كالعفّة مثلاً، فلطالما فاخر العربيّ بعفّته، وردّد المنشدون - اليومَ - بعض الأبيات التي تمجّد العفّة، وزعموا أنها من مكارم العرب الجاهليّة، ولكنك إذا فحصت النصوص وجدتها عفّة منقوصة! مرتبطة بالقيمة الرئيسة (الفرد جزء من الجماعة)، فإذا انفكّت عنها لم يعبأ العربي - قبل الإسلام - بالعفّة أو عدمها!، وانظر مصداق ذلك إلى قول حاتم الطائي (ت. نحو٤٦ق.هـ):

وما ضرَّ جارًا يا ابنة القوم فاعلمي

يجاورني ألا يكون له ستر[٢٣]

أو قوله:

لا نطرق الجارات من بعد هجعة

من الليل إلا بالهدية تُحمَلُ

(٢٣) حاتم الطائي، **ديوان شعر حاتم بن عبدالله الطائي وأخباره**، صنعة: يحيى بن مدرك الطائي، رواية: هشام بن محمد الكلبي، تحقيق: د. عادل سليمان جمال، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٤١١هـ، ص٢٠٣ (في الحاشية)؛ وانظر: حاتم الطائي، **ديوانه**، دار صادر، بيروت، ١٤٠١هـ، ص٥١.

ولا يلطم ابن العم وسط بيــوتنا

ولا نتصبّى عِرسه حين يغفل[٢٤]

أو قول عنترة (ت. نحو٢٢ق.هـ):

وأغض طرفي ما بدت لي جارتي

حــتى يواري جــارتي مــأواها[٢٥]

أو قول الطفيل الغنوي (ت نحو ١٣ ق.هـ):

ولا أخــالف جــاري في حليلتــه

ولا ابن عمي غـالتني إذا غـول[٢٦]

أو قول الخنساء (ت٢٤هـ):

ولا يقــوم إلى ابن العم يشــتــمــه

ولا يدب إلى الجارات تخويدا[٢٧]

تجد أن هذه الأبيات المشتهرة المفتخر بها إنما تربط قيمة (العفة) بقيمة (الفرد جزء من الجماعة) فالشاعر العربي كما في هذه النصــوص يعف عن: (جــارا، الجــارات، ابن العم،

(٢٤) حاتم الطائي، **ديوانه**، صنعة: يحيى بن مدرك الطائي، ص٢١٩.

(٢٥) عنترة، **ديوانه**، تحقيق: محمد سعيد مولوي، المكتب الإسلامي، ١٩٦٤م، ص ٣٠٨.

(٢٦) الطفيل الغنوي، **ديوانه (شرح الأصمعي)**، تحقيق: حسان فلاح أوغلي، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٧م، ص٧٨.

(٢٧) الخنساء، **أنيس الجلساء في شرح ديوان الخنساء**، ضبط وتصحيح وتعليق، لويس شيخو اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، ١٨٩٦م، ص٦٥.

جاري، ابن عمي، ابن العم، الجارات)، ولكنه فيما سوى ذلك يذكر تصبّيه قلوب النساء، وهتكه بيوت الحرائر وأعراضهن، بالحبّ وبالحرب، غَزَلاً وسبيًا، لا يعبأ بذلك، بل يفخر به، ويذيعه!.

وإنما استدللت بقيمة (العفة) لأؤكد أن حجر الأساس في منظومة القيم القبلية الجاهليّة هي قيمة (الفرد جزء من الجماعة)، وعليها تدور كل القيم، فإذا انهارت هذه القيمة تضعضعت سائر القيم.

والذي يعنيني في هذا السياق أنّ ما تقدّم يبيح افتراض أن (هجاء ذوي القربى) لا يوجد في مجتمع (الجماعة) المجتمع القبليّ؛ لأنه قائم على رؤية فردية مضادّة للقيم الرئيسة فيه، ومناقضة لمفهوم بنية الجماعة، وإذا ما اعتمل ذلك الهجاء في الضمير الفردي فإن قيم القبيلة تكبته، وتدفع به إلى اللاوعي، وأنّ ذلك الهجاء لم يظهر إلا مع بزوغ (الفردية) والحياة المدنية وذوبان قيم القبيلة بعد نهاية القرن الأول الهجري.

ولكن الواقع يكذّب هذا الافتراض! إذ بعد أن عزمت على البدء في هذا البحث وجمع نصوصه كنت أظن أن لن أجد شيئا ذا بال قبل القرن الثاني، وأنني سأثبت من خلال توافر النصوص في الشعر العباسي وانعدامها قبله أثر اختلاف البنية الاجتماعية من القبلية إلى المدنية، ومن الجماعة إلى الفرد، ولكنني فوجئت بالنصوص لم تقتصر على الشعر العباسي وحده، بل وجدت نصوصًا في القرن الأول وما قبله

لا أصفها بالقلة، وإن كانت أقل من النصوص المتكاثرة في العصر العباسي، وإن الفارق بين عدد النصوص قد يُرَدّ إلى ضيق المدى الزمني الذي يقدر بقرنين أو ثلاثة على أقصى تقدير، مقارنة بقرون العصر العباسي الستة، وإلى ضيق البقعة الجغرافية الناطقة بالعربية في جزيرة العرب قبل الفتوحات الإسلامية مقارنة بها بعدها، وإلى انعدام التدوين آنذاك، والاعتماد على الرواية، ومهما يكن من أمر فإنني أمام مشكلة بحثية تستدعي النظر والتأمل.

صراع القيم والاستخفاف بها: الرحلة من القبيلة إلى الأقارب

إن مما ظهر فيه الفارق جليًّا بين الشعر المدني في القرن الثاني وما بعده، والشعر القبلي في القرن الأول وما قبله أنهم كانوا في العصر الأول يعانون صراعًا قيميًّا إذا اضطروا إلى هجاء أقربائهم، صراعًا شبيهًا بانفصام الذات وجلدها، نظرًا إلى تماهي الذات الفردية والذات الجماعية، وربما يعض الشاعر على جرحه ولا يهجو قريبه؛ لأنه يعي أن هجاء قريبه سيرتد عليه، فكأنما يهجو نفسه، وبهذا فإن القيمة الكبرى (الواحد جزء من الجماعة) تحول بين الشاعر وبين القول الهجائي في أقاربه إذا أساؤوا وأخلوا ببعض القيم الفرعية تجاهه كالكرم والشجاعة؛ إذ هم هو، وهو هم، ووجوده منوط بهم، وكثيرا ما يشيرون إلى هذه القيمة ويعززونها، يقول المتلمس (ت. نحو ٤٣ق.هـ):

وما كنت إلا مثل قاطع كفه
بكف له أخرى فأصبح أجذما

يداه أصـــابت هذه حـــتف هذه
فلم تجـد الأخـرى عليـهـا مُـقَـدَّمـا
فـــأطرق إطراق الشـــجـــاع ولو يرى
مسـاغًـا لنابيـه الشـجـاع لصـمـمـا[٢٨]

ويقول قيس بن زهير (ت. ١٠هـ):

فـــإن أك قـــد بردت بهم غليلي
فـلـم أقـطـع بـهـم إلا بـنـانـي[٢٩]

ويقول معن بن أوس لأخيه:

سـتـقـطع في الدنيـا إذا مـا قطعـتني
يمينك ، فـــانظر أي كف تبـــدّل[٣٠]

(٢٨) هذه الأبيات قالها المتلمّس الضُّبعي في أخواله وقد بلغه أن أحدهم عرّض بنسبه، وأنه مرة ينتسب إلى يشكر، وحينًا ينتسب إلى ضبيعة؛ فيبدو أوّل وهلة خروجها عن المقصود من الفخر بالقوم، وعدم المساس بهم، وترك هجائهم إن ضارّوا الشاعر؛ إذ قوم الرجل هم أعمامه لا أخواله، ولكن ما جعلني أستشهد بها أمران: أولهما: ما ذُكر في خبر القصيدة في الديوان - وتعضده سائر أبيات القصيدة - أن المتلمّس ولد في أخواله بني يشكر، وأقام عندهم "حتى كادوا يغلبون على نسبه"، فلا غرو أن يعدّهم قومه، وأن يتعصب لهم كتعصبه لأعمامه، فإذا ساءه منهم أمر لم يجرؤ على هجائهم. وثانيهما: أن أخواله بني يشكر وأعمامه بني ضبيعة يلتقون في ربيعة بن نزار، فأخواله من قومه. المتلمّس الضَّبَعِيّ، **ديوان شعره (رواية الأثرم وأبي عبيدة عن الأصمعي)**، تحقيق: حسن كامل الصيرفي، معهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية، ١٣٩٠هـ، انظر: ص٣-٣٤.

(٢٩) المرزوقي، **شرح ديوان الحماسة**، ١/ ٢٠٣.

(٣٠) معن بن أوس، **ديوانه**، ص٩٤.

ويقول العديل العجلي (ت. بعد ١٠٠هـ):

ظللت أســـاقي الهم إخـــوتي الألى
أبوهم أبي عند المزاح وفي الجـــد
كـــفى حـــزنًا أن لا أزال أرى القنا
يمجّ نجيعًا من ذراعي ومن عضدي
وإني وإن غـــادرتهم أو جـــفـــوتهم
لتـألم مما عضّ أكـبـادهم كـبـدي
فـــإن أبي عند الحـــفـــاظ أبوهمُ
وخـالهمُ خـالي وجـدهمُ جـدي[٣١]

يعي الشاعر أن القوم هم الذات، وأن الجماعة هم الأنا، وأن ما يصيبهم يصيبها، فإذا اضطر إلى القول فكأنما يقطع يده، أو بنانه، أو يهرق دمه!، وإن كثيرًا من نصوص الهجاء في العصر الأول تنبني بقلق شديد تجاه ما تفرضه تلك القيم على الفرد، فالشاعر يفضي بما في نفسه من هجاء لأقاربه وهو يتصارع مع القيم التي تنهاه، فيظهر ذلك الصراع على بنية النص، ومن ذلك أن المقنع الكندي (ت. ٧٠هـ) حين أراد هجاء قومه اعتمد على تعزيز القيم، وادعاء الفخر، واحتال على الثقافة العربية التي تأبى أن تمس قيمها بسوء فقال من قصيدة وقد عاتبه قومه في الدَّين:

(٣١) ابن ميمون؛ محمد بن المبارك، **منتهى الطلب من أشعار العرب**، تحقيق: د. محمد نبيل طريفي، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٤٢٩هـ، ٨/ ١٧٨-١٨١.

وَإِن الَّـذي بَـيـنـي وَبَـين بَـنـي أَبـي
وَبَينَ بَني عَـمّي لَمُخـتَلِفٌ جِـدّا
أَراهُم إِلى نَصـري بِطاءً وَإِن هُمُ
دَعَـوني إِلى نَصـرٍ أَتيـتُـهُم شَـدّا
فَـإِن أكلوا لحَـمي وَفَـرتُ لحـومَـهُم
وَإِن هدموا مَجدي بنيتُ لَهُم مَجدا
وَإِن ضَيَّعوا غيبـي حَفظتُ غيوبَهُم
وَإِن هُم هَوُوا غَـيـيِّ هَويتُ لَهُم رُشدا
وَإِن زجـروا طيـرًا بنحسٍ تمرّ بي
زجـرت لهم طيـرا تمرّ بهم سـعـدا
وَلا أَحـمِلُ الحِـقـدَ القَـديمَ عَلَيـهِم
وَلَيسَ رئيس القَومِ مَن يَحمِلُ الحِقدا
لهم جل مـالي إن تتـابع لي غنى
وإن قلّ مـالي لم أكلّفـهم رفـدا(٣٢)

انقلب الشاعر على القيم الناهية عن ذم ابن العم بتعزيز ذات القيم وتمجيدها!، فقبلت الثقافة قوله في بني عمه، ومجّدته، وجعلته مثالا للخلق الرفيع، وصنّفت قوله فخرًا أو

(٣٢) بعض أبيات القصيدة في **حماسة أبي تمام**، شرح المرزوقي، ٣/ ١١٧٨-١١٨٠، وتمامها في الحماسة البصرية، ومنها أخذت؛ انظر: البصري، صدر الدين عليّ، **الحماسة البصريّة**، تحقيق: عادل سليمان جمال، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٤٢٠هـ، ٢/ ٨٥١-٨٥٢.

عتابًا لا هجاءً، رغم أنه أقذع في وصف قومه فلمزهم بالجبن والبخل والحسد وقلة المروءة، وهي من صفات الهجاء الشنيعة، وقال فيهم ما لا ترضاه ثقافة القبيلة، وصيّر من ذاته - وهو من بيت رئاسة - رئيسًا عليهم حين قال: (وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا)، فقبلت الثقافة هذه الكلمة وتغافلت عن أن (رئيس القوم لا يهجو قومه بل يستر عيوبهم، ويذيع فضائلهم)، وهكذا لم يستطع المقنع أن يجابه القيم إلا باستغلالها عن طريق تعزيزها.

إذا كان الشعر في القبيلة العربية هو حارس القيم، وممثّل الثقافة، فإنه سيظل مدافعا عنها منتسبا إليها، وسيظل الشاعر معظّما لقومه على شرط ألا يخونوا هم القيم فيسقطوا عنهم ظُلَّتها، يقول عمرو بن معديكرب (ت. ٢١هـ) واصفا عجزه عن تعظيم بعض قومه حين لم يرعوا حق القيم:

ظلِلت كَأَني لِلرماح دَرِيئة
أُقاتِلُ عَن أبناء جَرمٍ ، وَفَرَّتِ!
فلو أن قومي أنطقتني رماحهم
نطقتُ، ولكن الرماح أجرّت[٣٣]

ويقول الآخر:

وقافية قيلت لكم لم أجد لها
جوابا إذا لم تضربوا بالمناصلِ

(٣٣) عمرو بن معديكرب الزبيدي، **شعره**، جمع: مطاع الطرابيشي، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ط٢، ١٤٠٥هـ، ص٧٣.

فـــــأنطق في حق بحق ولم يكن
ليرحض عنكم قالة الحق باطلي[٣٤]

وبناء على ذلك فإنني - فيما اطلعت عليه- لم أجد الشاعر قبل القرن الثاني يخرق القيم (بهجاء قومه) إلا إذا تجرؤوا هم وخرقوا القيم قبله[٣٥]، أو أقول: إن خرق القيم جاء من خارج الشعر، فالشاعر لم يؤسس لذلك، بل استجاب له حين حدث خارج الشعر، وهكذا هي القيم مترابطة إذا انهار جزء منها تداعى باقيها!، ومن ذلك أن قريظ بن أنيف[٣٦] هجا قومه إذ لم ينصروه وقد نُهبت إبله، هجاهم باستبدالهم قيمًا مختلفة عما تواضعت عليه القبيلة، وتحاشى مصادمة الثقافة بتعزيزها، يقول:

لو كنت من مازنٍ لم تستبح إبلي
بنو اللّقيطة من ذُهل بن شيبانا
إذًا لقام بنصري معشر خُشُنٌ
عند الكريهـــــة إن ذو لُوثةٍ لانا
قومٌ إذا الشرّ أبدى ناجذيه لهم
طاروا إليـــه زرافـــاتٍ ووحـــدانا

(٣٤) الجاحظ، عمرو بن بحر، **البيان والتبيين**، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٧، ١٤١٨هـ، ١/ ٢١٤.

(٣٥) راجعْ: أ. د. أحمد إسماعيل النعيمي، **القبيلة في الشعر الجاهلي**، ص٢٢٦-٢٢٧.

(٣٦) تقدّمت الإشارة إلى توهين هذه النسبة، والثابت أن الأبيات لشاعر من شعراء بلعنبر وإن لم يسمّ.

لكنّ قـومي وإن كـانوا ذوي عـددٍ
ليـسـوا من الشـرّ في شـيء وإن هانا
يجـزون من ظلم أهل الظلم مغـفـرةً!
ومن إسـاءة أهل السـوء إحـسـانا
كـأنّ ربّك لم يخلق لخـشـيـتـهِ
سـواهُمُ من جـمـيع النـاس إنسـانا
فليت لي بهمُ قـومًـا إذا ركـبـوا
شنّوا الإغـارة فـرسـانا وركـبـانا
لا يسـألون أخـاهم حين يندُبُهم
في النائبات على ما قال برهانا[٣٧]

لقد تخلى قومه عن قيم القبيلة (الشجاعة والنجدة وعدم سؤال الداعي) واستبدلوا بها قيما حديثة: (المغفرة والإحسان وخشية الله) - وهي قيم إسلامية تجعلني أرجح أن قريظا عاش في القرن الهجري الأول - وعليه فلا يحق للقبيلة أن تطلب من الثقافة القَبَلِيّة أن تحميها من لسان ابنها، أليست هي من تخلّت عن تلك الثقافة أوّلا؟!، ولا يحق لها أن تطلب من الشاعر أن ينتصر لها بشعره وهي لم تنصره، إن منظومة القيم يحافظ عليها الشاعر/ الفرد لأنها تحافظ عليه، فإذا اختلت هي فإن شعره سيختل تبعًا لها، وانظر كيف منحت الثقافة/ الشعر قبيلة ذُهْل المديح؛ لأنها حافظت على القيم،

(٣٧) ابن قتيبة، **عيون الأخبار**، ١/ ١٨٨.

ومنعته من قبيلة الشاعر - على خلاف سنن الشعر - لأنها لم تعبأ بالسنن الثقافية الأهم.

وإنني أرى في هذا النص بذرة من بذور تفكك رابطة التمسك بالقبيلة، وبروز فردية الفرد؛ إذ لم يعد بين القبيلة والفرد عقد اجتماعي تكفل له بموجبه حماية نفسه وماله، ويكفل لها هو الحماية أيضا، حماية شرفها، وسمعتها، وتأكيد انتمائه لها[٣٨]، وهو ما سنلحظه جليّا إذا تقدّمت القرون.

ويظل الشاعر نزّاعا إلى تلك القيم التي تتخلخل وتذوب شيئا فشيئا، فهو طورا يهجو قومه لتخليهم عنها ، وطورا يندم على ذلك الهجاء؛ إذ الهجاء مظهر آخر من مظاهر التخلي، وتظل القيم غالبة من أراد مغالبتها، يجلّي ذلك أن كعب بن جُعَيل (أو جُعَل) (ت. نحو ٥٥هـ) - أو أخاه عَمِيرةَ! (ت؟) - قال يهجو قومه:

كَسَا اللهُ حَيَّيْ تَغْلِبَ ابْنَةِ وائِلٍ
مِنَ اللُّؤْمِ أَظْفَارًا بَطِيئًا نُصُولُها
فما بِهِمَ أَلاَّ تَكُونَ طَرُوقَةً
كُرَامًا، ولكِنْ غَيَّرَتْها فُحُولُها

(٣٨) يرى المرزوقي أن هذه الأبيات ليست في هجاء قوم الشاعر، بل القصد منها بعثهم على الانتقام له من أعدائه ومهتضميه، وتهييجهم، وهزهم، وقد أجاد في عرض رأيه، وأنا - وإن خالفته - أقتنص قوله: "وكيف يذمهم ووبال الذم راجع إليه!". قلتُ: طوّع المرزوقي معاني الهجاء في هذا النص لما يعرفه من قيم القبيلة، ولو لم يكن من النصوص في هجاء القوم وذوي القربى إلا هذا لمِلت إلى رأيه. المرزوقي، **شرح ديوان الحماسة**، ١/ ٢٣.

إذا ارتحلوا من دار ضيمٍ تعاذلوا
عليهم وردّوا وفدهم يستقيلها!

ولكنه ما لبث أن ندم فقال:

نَدِمْتُ على شَتْمِ العَشِيرةِ بَعْدَ ما
مَضَتْ واستَتَبَّتْ للرُّواةِ مَذاهِبُهْ
فأَصْبَحْتُ لا أَسْطِيعُ ردًّا لِما مَضَى
كما لا يَرُدُّ الدَّرَّ في الضَّرْعِ حالِبُهْ[٣٩]

وحاصل ما مرّ أن (هجاء القبيلة) في القرن الأول وما قبله لم يكن في غالبه هجاء منقلبا على قيمة (الفرد جزء من الجماعة) بل هو يعززها، ويسوؤه تضعضعها، وربما احتال عليها إذ لا يستطيع مجابهتها، ولكن الشاعر العباسي في القرن الهجري الثاني وما بعده على خلاف ذلك!، إذ خفتت قيم القبيلة في ضمير الفرد، فصار لا يعبأ بها إلا في حدودٍ لا تمحق فرديته، فهو يصرّح بازدراء الأقارب وهم العصبة

(٣٩) في نسبة الأبيات اضطراب: أهي لكعب أم لعَمِيرة، وهل عميرة أخو كعب أم هو جاهلي، وهل اسمه عميرة أم عمير، وهل أبوهما (أو أبوه) جُعَلٌ أم جُعَيل ؟! وقد فصّل بعض التفصيل محقق المفضليات، ولم يقفل المسألة، والأبيات أو بعضها في المصادر الآتية: المفضل الضبي، **المفضليات**، ص٢٥٧-٢٥٨؛ ابن قتيبة، **الشعر والشعراء**، ٢/ ٦٣٦؛ الجمحي. محمد بن سلام، **طبقات فحول الشعراء**، قرأه وشرحه: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، ٢/ ٥٧٣-٥٧٤؛ المرزباني. محمد بن عمران، **معجم الشعراء**، تحقيق: عبدالستار أحمد فرّاج، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، (سلسلة الذخائر؛ ٩٣)، ٢٠٠٣م، ص٧٥، ٢٣٣-٢٣٤.

الأدنون في عرف القبيلة، يقول ابن المعتز (ت. ٢٩٦هـ) في قصيدة:

لحومهم لحمي وهم يأكلونه
وما داهيات المرء إلا أقاربه
ليوث إذا ما غاب يفترسونه
وهم إن رأوه في النديِّ ثعالبه
وما نسبُ الأقوام إلا عداوةٌ
وأكثر من تشقى به من تناسبه(٤٠)

ويقول ابن العميد (ت. ٣٦٠هـ) - وقوله شاع في كتب الأدب -:

آخ الرجال من الأبا
عد والأقارب لا تقارب
إن الأقارب كالعقا
رب بل أضرُّ من العقارب(٤١)

ويقول الآخر:

يقولون عز في الأقارب إن دنت
وما العز إلا في فراق الأقارب

(٤٠) ابن المعتز، **ديوان شعره**، صنعة: أبي بكر الصولي، تحقيق: د. يونس أحمد السامرائي، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ، ٢/ ٢٦١-٢٦٢.

(٤١) الثعالبي. عبدالملك بن إسماعيل، **يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر**، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الفكر، ٣/١٧٩-١٨٠.

تراهم جميعًا بين حاسد نعمة

وبين أخي ضغن وآخر عائب[٤٢]

والملحوظ في هذه القطع وأمثالها أنهم استبدلوا بألفاظ (القبيلة والعشيرة والقوم والحي) لفظة (الأقارب) وهي لفظة مدنية ذات دلالات، يقولها من لا يكاد يعرف من قومه إلا الأقربين، وفوق ذلك فإنه لا يفتخر بنصرهم وإكرامهم كما تقتضيه الثقافة القديمة، ولا يفخر بمآثرهم في الشجاعة والكرم، بل يتحاشاهم !، ويحذر شرهم، وعوض أن يرى عزه في عزهم يرى عزه في فراقهم!، وفي عيشه فردا!، إنه اختلاف في البنية الاجتماعية اقتضى اختلافا في البنية الفكرية يستخف بالقيم القديمة التي لم يعد يحتاجها ساكن المدينة، وقديمًا كان العربي لا يرى أعز منه إذا كثر أقاربه فصار أبا لعشرة وعما لعشرة وأخًا لعشرة[٤٣]، يقول الأجرد الثقفي (ت. بعد ٦٥هـ):

(٤٢) الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، **محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء**، تحقيق: د. رياض عبدالحميد مراد، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٤٢٧هـ،١/٧٥٢.

(٤٣) انظر خبر عامر بن أحيمر مع المنذر بن ماء السماء: المرزوقي، **شرح ديوان الحماسة**، /١٦٦٨٤. وفي هذا الخبر استبدل "خالاً لعشرة" بـ"أخ لعشرة"، وكنت أستركُّ هذا، وأظنه خللاً في رواية الخبر، ثم قرأتُ خبرًا آخر وقع بين عبدالرحمن بن الحكم ومعاوية بن سفيان، وفيه الأخ لا الخال، فملت أكثر إلى تخطئة من يرويها: (خالا)، كيف لا وهم يستعزّون بإخوانهم دون أخوالهم إذا حزب الأمر. انظر: الأصبهاني، أبو الفرج علي، **الأغاني**، تحقيق: جماعة منهم: عبدالسلام هارون، مؤسسة جمال للطباعة والنشر (نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب)، بيروت، ١٣/٢٦١.

من كان ذا عضدٍ يدرك ظُلامته

إنّ الذليل الذي ليست له عضد

تنبو يداه إذا ما قلّ ناصرُهُ

ويمنع الضّيم إن أثرى له عدد(٤٤)

ولكن القيم المدنية الحديثة تنفي الاعتزاز بالأقارب وبعددهم، يصف الفيلسوف الكندي (ت. ٢٥٢هـ) -ابن المدينة وأحد ممثلي ثقافتها- الأقاربَ بقوله: "الأب ربٌّ، والأخ فخٌّ، والعم غمٌّ، والخال وبالٌ، والولد كمدٌ، والأقارب عقارب، وإنما المرء بصديقه"!(٤٥).

ولا بد أن أشير إلى احتمال أن ما سبق من النصوص إنما قيل رغبةً في تصحيح الوضع الاجتماعي، وتعزيز دور الأقارب، ونقدًا للتخلي عن قيم الجماعة، فيكون القَول تحسّرًا على الواقع الجديد، وبيانًا لرداءته من خلال التصريح بتلك الرداءة وادّعاء تبنيها! ما يحدث رد فعل عند المتلقي يجعله يعيد النظر بين القيمِ الموروثة والممارسة الاجتماعية، وهكذا يمارس الشعر لعبةً مخاتلةً ترثي القيم أو تبنيها عن طريق ادعاء هدمها وهجائها! ومن جهة أخرى لعل كل نصٍّ من تلك النصوص إنما قيل في سياق ثقافي اجتماعي مخصوص، كاختلاف بين الأقارب علىً إرث، أو

(٤٤) ابن قتيبة، **الشعر والشعراء**، ٢/٧٢٤.

(٤٥) الحصري القيرواني، **نور الطرف ونَور الظرف**، تحقيق: لينة عبدالقدوس أبو صالح، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ، ص٢٢٤.

خصومة طلاق، وما شابه ذلك مما يكاد يعزل هذه النصوص عن تعميمها على الواقع، ولكن هذا لا ينفي أن نظام القيم القديمة كان يمنع بروز هذه المعاني في هذه السياقات، على خلاف نظامها في القرن الثاني وما بعده، كما أن استعمالهم في هذه النصوص لكلمة (الأقارب) دون (القبيلة) يدلّ على بنية فكرية لا تشبه البنية الفكرية الأولى؛ إذ لكل اختيار لغوي مرجعية فلسفية متماسكة، وحين اختلفت تلك المرجعية في القرن الثاني وما بعده اختلفت الكلمات المستعملة للمعاني المتشابهة.

ولم يكن الانتقال من ثقافة الجماعة إلى الفرد، ومن ثقافة القبيلة الموفورة إلى ثقافة الأسرة المحذورة سهلا، ولم يكن ولن يكون كاملاً، فإن اللغة وأدبها يتسلسلان في بنية الفكر وينقلان معهما أنساقًا قيمية لا تزول إلا بزوال اللغة وأدبها، تكمن تلك الأنساق حينا، وتظهر حينا، ولذلك فإن بوادر هذا الانتقال ظهرت عنيفة، وتمثّلت - أزعم - في شعر الحطيئة (ت. ٤٥هـ) الذي عاش فردا متكسّبا متبّعا مصلحته الخاصة، ثائرا على القبيلة وقيمها، معلنا استخفافه بقومه إذ هجاهم فقال:

لهمْ نَفَرٌ مثلُ التُّيوسِ ونسوةٌ
مَمَاجيرُ مثل الآتُنِ النَّعِراتِ
لَعَمْري لقدْ جرَّبتكمْ فوجدتُكُمْ
قِباحَ الوجوهِ سَيِّئي العذراتِ[٤٦]

(٤٦) الحطيئة، **ديوانه برواية وشرح ابن السكيت**، تحقيق: د. نعمان محمد أمين طه، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٤٠٧هـ، ص١١٣.

ثم أعلن تفرّده، وأنه لن يشرك قومه في ماله إن رزقه الله!:

فَإِن يَصطَنِعني اللَهُ لا أَصطَنِعكُمُ
وَلا أوتِكُم مالي عَلى العَشَراتِ

وأوغل في ذلك الاستخفاف بنصوص أخرى هاجيا أباه، وأمه، وأخويه، وزوجه، بل هجا نفسه في نصوص مشهورة بين خاصة أهل الأدب وعامتهم(٤٧)، لم تشتهر لجودتها؛ بل لغرابتها، وخروجها عن أفق التوقع، وكأنما كان فعله هذا ردا نفسيا عنيفًا على مَحْق فرديته، فانقلب على الفخر الذي يعزّز قيم القبيلة بالهجاء الذي لا يعبأ بها، وأوغل في استخفافه بها بأن هجا نفسه، ورثّث ثيابه، وأهان ذاته، وكأنما يريد ألا تمارس القبيلة سلطتها عليه فتخوّفه بأنها سترذّله فرذّل نفسه!، معلنا أن منظومة القيم الجماعية المتماسكة لا تعنيه في شيء، ونتيجة لذلك صار شعر الحطيئة منعطفا مهما في الشعر التكسّبي الذي يخوّف المعطي بالهجاء، ولم يكن ليظهر هذا عند شاعر يحمي قبيلته؛ يخاف أن يُرَدَّ الهجاء بالهجاء(٤٨)، وقد جازت الثقافة الحطيئةَ - الخارج عليها - بأن وصفته بكل سوء، يروى عن

(٤٧) انظر طرفًا من أخباره: الأصبهاني، **الأغاني**، ٢/١٥٧-٢٠٢؛ ابن قتيبة، **الشعر والشعراء**، ١/٣١٠-٣١٦.

(٤٨) يرى عبدالله الغذامي التكسّبَ بالمديح تخليًا عن أن يكون الشاعر صوت القبيلة؛ وبدايةً لاهتمامه بمصلحته الشخصية، وأقول: إن التكسب بالهجاء تطوّرٌ ثان تجلّت فيه الفردية. انظر: عبدالله الغذامي، **النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء وبيروت، ط٢، ٢٠٠١م، ص١٠٠.

الأصمعي (ت. ٢١٦هـ): "كان الحطيئة جشعًا سؤولاً ملحفًا، دنيء النفس، كثير الشر، قليل الخير، بخيلاً، قبيح المنظر، رث الهيئة، مغموز النسب، فاسد الدين"(٤٩)؛ والحظ الغمز في نسبه هنا، وفي أخبار أخرى تروى عنه ينتسب فيها إلى غير قبيلة(٥٠)!، فإن كان قد فعل فإن ذلك من قبيل الثورة على القبيلة وسلطانها، وتعزيز استقلاله فردًا، وإن كانت الثقافة قد اختلقت ذلك فيصحّحه - عندها - أن سليمَ النسب لا يهجو قومه!، ولا يستقلّ فردًا عنهم!.

ومهما يكن من أمر فإن بدايات هجاء ذوي القربى كانت قلقةً لمصادمتها القيم، وكانت تظهر فلتاتٍ حتى تجلّت ثورةً عند الحطيئة. أو كانت تفتّش عن أصول تنتسب إليها عند من يعبأ بالأصول والنسب، كما فعل الفرزدق (ت. ١١٠هـ) حين هجا ولده بأبيات مطلعها:

أإن أرعشت كفا أبيك وأصبحت

يداك يدي ليث فإنك حاربه(٥١)

إذ سبكها على وزن وروي قصيدة فرعان بن الأعرف (ت. بعد ١٣هـ) في ابنه منازل:

(٤٩) الأصبهاني، **الأغاني**، ٢/ ١٦٣.

(٥٠) انظر: الأصبهاني، **الأغاني**، ٢/١٥٧-١٦٣.

(٥١) أبو عبيدة معمر بن المثنى، **العققة والبررة**، تحقيق: عبدالسلام هارون (ضمن سلسلة: نوادر المخطوطات، المجلد ٢/ المجموعة السابعة)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط٢، ١٣٩٣هـ، ص٣٥٦. وانظر: الفرزدق، **شرح ديوانه**، تحقيق: إيليا الحاوي، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، بيروت، ط١، ١٩٨٣م، ١/ ١٧٥.

جـــــزت رحم بيـنـي وبـين مُنـازل
جزاء كما يستجز الدين طالبه[٥٢]

وكأن الفرزدق الذي يراعي السنن الثقافية يعرف أن هجاء الأقارب خروج عن السنن، فالتمس في قصيدة فرعان أصلاً يتكئ عليه!، ويستمد منه الشرعية.

ومن دلائل القلق أيضا أن بعض الشعراء يحتال على القيم كما فعل المقنع الكندي في النص الذي مر، أو كما يفعل بعضهم من مهادنة للقبيلة، إذا هجا أحد أفرادها مدح آخر في الآن نفسه، كفعل عتيبة بن مرداس (ت. بعد ٨ هـ) في قوله:

رأيتُ المعلّى ليس يُشـــبـــه عـــمَّـــه
ولا خـــــالَه ولا أباه المقـــــدَّمـــــا
أولئك مـــــا زالوا عـــــرانينَ خندف
إذا كان يومًا كاسِفَ الشَّمس مُظلِما
وهذا فـمـــا نلقـــاه إلاَّ مـــصـــمِّـــمًـــا
على مال ذي القُربى وإن كان مُعدِما[٥٣]

وكفعل عبد الرحمن بن الحكم (ت. ٦١هـ) حين هجا أخاه الحارث إذ نكص عن الغزو مدح ابن أخيه في الآن نفسه بقوله:

---

(٥٢) أبو عبيدة، **العققة والبررة**، ص٣٦٠.

(٥٣) الخالديان، **الأشباه والنظائر: من أشعار المتقدمين والجاهليين والمخضرمين**، تحقيق: د. السيد محمد يوسف، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة (ج١، ١٩٦١م؛ ج٢، ١٩٦٥م)، ١/١٣٣.

كفاك الغزو إذ أحجمت عنه
حديث السن مقتبل الشباب(٥٤)

وكما فعل العجير السلولي (ت. ٩٠هـ) إذ ذم ابن عمّ له ورثى آخر:

نهارُك ما فيه لَيَانٌ ولا قِرى
لَعِينٌ ، وأيام ابن زيد صوالح(٥٥)

وكفعله أيضا حين هجا ابنه القيل ومدح ابنه الفرزدق:

فلا تجعلن القَيّلَ إلا لمزْرَعٍ
روَاءٍ ، ولكنّ الشجاعَ الفرزدقُ(٥٦)

لقد كان المدح في هذه النصوص خطةً لتمرير الهجاء، ومحاذرةً لقول القائل إن الشاعر يهجو قومه، أو يجرؤ على القيم، إنه وعي بخطورة هذا القول الذي يقتضي عزل المهجوّ عن العشيرة قبل الإجهاز عليه.

والذي أؤكده أن ثقافة القبيلة حين تضعضعت مع بزوغ الفردية، والحياة المدنية لم يكن ذلك التضعضع سهلا مقبولا، ولن يكون كاملا، بل سيظل الشعراء مشدودين إلى تلك الثقافة يتوارثونها بينهم، وستظل أنساقها حيةً متسلسلة، وأختم بشاهدين على ذلك أحدهما من شعر ابن المعتز – وقد مرّ آنفًا وصفه للأقارب بـ (الداهيات) ما يوحي بتخلّيه عن

(٥٤) الأصبهاني، **الأغاني**، ١٣/٢٦٦.
(٥٥) الجمحي، **طبقات فحول الشعراء**، ٢/٦٢٠.
(٥٦) الجمحي، **طبقات فحول الشعراء**، ٢/٦٢١.

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الثالث رجب ١٤٣٤هـ، السنة التاسعة والثلاثون
الدارة

ثقافة القبيلة - إذ نرى النسق الثقافي القديم يغلبه ويظهر عنده في هجائه لابن بسّام (ت. ٣٠٢هـ) المشتهر بهجاء أبيه - وسيمر ذكره - إذ غمز في نسبه كما غمز الأصمعي في نسب الحطيئة حراسةً للقيم القديمة، يقول:

مـن رام هجـــــو علـيٍّ
فـشـــعـــره قـــد هـجـــاهُ
لـو أنــه لأبـيــــــــــه
مــا كـــان يهــجــو أباهُ(٥٧)

والآخر من شعر دعبل الخزاعي (ت. ٢٤٦هـ) إذ هجا أخاه بأبيات ختمها بقوله:

فدونك عرضي فاهج حيًا وإن أمت
فأقسم إلا ما خريت على قبري(٥٨)

فقد طلب الهجاء في هذا البيت، والإساءة إليه حيًا وميتًا، وما كان هذا المعنى ليظهر في هجائيات دعبل لغير أخيه، وإنما دفع عقله التخييلي هذا المعنى (الادعاء بأنه لا يعبأ بأثر الهجاء عليه كما كان ذو الثقافة القديمة يعبأ) لوعيه أن هجاء أخيه هجاءٌ لذاته، وأن العار الذي سيلحق أخاه من هذا الهجاء لاحق إياه، وأن هذه الأبيات التي يقولها ذمٌّ له ولأخيه، وأنه إن كان يكترث لوقع الهجاء فليكترث الآن، إنه نسقٌ

(٥٧) ابن المعتز، **ديوانه**، ١/٦٥٩.

(٥٨) دعبل بن علي الخزاعي، **شعره**، صنعة: د. عبدالكريم الأشتر، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ط٢، ١٤٠٣هـ، ص١٤٨.

أصيلٌ يظهر في الهجاء مهما حاول الشاعر مراوغته والالتفاف عليه، وادعاء ثقافة تخالفه.

والذي أردت تأكيده - من الإشارة إلى الثورة، والبحث عن الشرعية، ومهادنة القيم والاحتيال عليها، وكمون تلك القيم حينا وظهورها حينا - أن التحوّلات التي أرصدها في هذا الشعر من القيم القبلية الجماعية إلى القيم المدنية الفردية ليست كاملة، إذ لم تتهاوَ قيم القبيلة، ولا يمكن لها أن تذوب وتتلاشى، بل ظلت حيّة تحملها اللغة وتحميها، إذ "اللسان ينقل إلى الإنسان نسقًا من القيم"(٥٩)، وإنما أرصد بوادر تشير إلى تزعزعها، وبزوغ قيم جديدة تشتدّ شيئا فشيئا، تزاحمها، وكلما قويت أضعفتها.

الاعتزاز بالأصول، وهجاء الأب:

إن (الأبَ) في الثقافة القديمة مصدر المجد والفخر، وليس لابنه تعريف ولا كينونة إلا بأبيه وأفعال أبيه، بل إن الثقافة تزعم أن الابن لا يمكن أن يكون ماجدا ما لم يرثِ المجدَ من أبيه، مهما سعى وجدّ في السعي !، يقول عمرو بن كلثوم (ت. نحو ٣٩ ق.هـ):

وَرِثناهُنَّ عَن آباءِ صِدقٍ
ونُورِثُها إِذا متنا بَنينا(٦٠)

(٥٩) الطاهر لبيب، **سوسيولوجيا الغزل العربي: الشعر العذري أنموذجًا**، ترجمة: المؤلف، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط١، ٢٠٠٩م، ص٢٨.

(٦٠) الموروث هنا: الخيل، ولا يخفى ارتباطها الوثيق بالقيم والمجد والسيادة. انظر: الأنباري، **شرح القصائد السبع الطوال**، ص٤١٧.

ويقول زهير (ت. نحو ١٣ ق.هـ):

سَعى بَعدَهُم قَومٌ لِكَي يُدرِكوهُمُ
فَلَم يَفعَلوا وَلَم يُليموا وَلَم يَألوا
فَما يَكُ مِن خَيرٍ أَتَوهُ فَإِنَّما
تَوارَثَهُ آباءُ آبائِهِم قَبلُ
وَهَل يُنبِتُ الخَطِّيَّ إِلا وَشيجُهُ
وَتُغرَسُ إِلا في مَنابِتِها النَخلُ[٦١]

ويقول أوس بن مغراء (ت. نحو٥٥هـ):

فمهما كان من خير فإنا
ورثناه أوائل أولينا[٦٢]

فالأبناء امتداد للآباء، والأب قيمة مقدّسة لا تمسّ، وليس موضع تساؤل أو تقييم، ومهما يكن الهجاء الذي وجدته قبل القرن الثاني لذوي القربى فإني لم أكد أجد هجاء للآباء إلا نُتَفًا يسيرة منها ما يروى لأعرابي :

إذا كانت الآباءُ مثل أب لنا
فلا أبقتِ الدُّنيا على ظهرها أبا

(٦١) زهير بن أبي سلمى، **ديوانه**، شرح علي حسن فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ، ص ٨٧ .

(٦٢) الجريري، المعافى بن زكريا، **الجليس الصالح الكافي والأنيس الصالح الشافي**، تحقيق: د. إحسان عباس، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ، ٤٥/٢.

إذا شابَ رأس المرء أقصر وارعوى
وإنَّ أبانا حين شاب تشبَّبا(٦٣)

ومنها ما يكون جرأة على قيمة (الأب) دون المساس بوالد الشاعر مباشرة، ومن ذلك ما نجده في قول أعرابي:

لكسرى كانَ أعقلَ من تميمٍ
ليالي فرَّ من أرض الضِّبابِ
فأنزل أهلَهُ ببلادِ ريفٍ
وأشجارٍ وأنهارٍ عِذابِ
فصارَ بنو بنيه بها ملوكًا
وصرنا نحنُ أمثالَ الكلابِ!
فلا رحم الإله صدى تميمٍ
فقد أزرى بنا في كلِّ بابِ(٦٤)

إذ إن التّماسّ مع حضارة الفرس وثقافتهم المختلفة عن حضارة العرب وثقافتهم هيّأ لذلك الأعرابي أن يضع موروث الآباء من المجد موضع التساؤل، وأن يعيد النظر في تلك القيم المتوارثة التي تجعل قيمة العربي من قيمة والده، ولعل ما سهّل القول وأجراه على لسانه أنه لم يضع والده الأعلى في مقارنة مع آباء العرب نظرائه، بل قارنه بكسرى وهو موضع لا يفخر عليه عربي فيه، فإن اتفق معه فهما في الدون سواء، وإن خالفه فهما في الرفعة سواء.

(٦٣) الخالديان، **الأشباه والنظائر**، ١٢٨/١.
(٦٤) الجاحظ، **الحيوان**، ١٠١/٦-١٠٢.

أما بعد بداية القرن الثاني فإن قيمة الافتخار بالآباء وعدِّ الذات امتدادا لهم ليس لها شرف بدونهم قد تراجعت، ولا يعني ذلك أنها تلاشت فما زالت حية إلى اليوم، ولكن بروز الفردية، وتفتّت القبيلة جعل الشاعر لا يعبأ لو أراد أن يهجو والده إذا كان سيحقق ذلك نفعا لذاته، بل إنه لا يعبأ أن يهجو ذاته مع والده، يقول ابن عنين (ت. ٦٣٠هـ):

وجنّبني أن أفعل الخير والدٌ
ضئيلٌ إذا ما عُدَّ أهلُ المناسبِ
بعيدٌ عن الحسنى قريبٌ من الخنا
وضيعُ مساعي الخيرِ جمِّ المعايبِ
إذا رُمْتُ أن أسمو صعودًا إلى العلى
غدا عرقُهُ نحو الدنيّةِ جاذبي[٦٥]

إن ابن عنين هنا يقرّ بحقيقة الثقافة العربية التي ترى أن الأب يورث ابنه المجد أو الهوان، ويزعم أنه يتمثّلها، ولكنه مع هذا الاعتراف والتمثّل ينقضّ على تلك الثقافة، وينقلب عليها، ويهوّن من شأنها، ويهجو والده مستخدما الأساليب ذاتها التي كانت تستخدم لمديح الوالد والفخر به، فكأنما يهجو والده مرتين، مرة بتشويه الأساليب الثقافية العليا عن طريقٍ استخدامها في غير موضعها، ومرة بتشويه والده حقيقةً بالذم، وإمعانا في ذلك التشويه للاثنين يشوّه ذاته – وذاته

(٦٥) ابن عنين، محمد بن نصر، **ديوانه**، تحقيق: خليل مردم بك، دار صادر، بيروت، ط٢، ص٢٣٩.

نتاج والده ونتاج الأعراف الثقافية أيضًا؛ فتشويهُ ذاته تشويهٌ لهما - مستخفًّا بأعراف الفخر الثقافي الشعري وأعراف المكانة الاجتماعية، التي يحرص نظام السلطة على أن يتنافس في بنائها الأفراد، وهنا يحق لنا أن نتساءل: هل هجا ابن عنين والده فعلا، أم كان يهجو السلطة التي يرمز لها (الأب)؟ ومنها السلطة الثقافية، والسلطة السياسية التي نفت ابن عنين خارج مصر ردحا من الزمن(٦٦).

إن الثورة على السلطة في بعض مظاهرها هي نتاج تشكّل مشاعر مضطربة في وقت مبكّر من عمر الإنسان (بين ثلاث وخمس سنوات) تلك المشاعر تتضمن مزيجًا من التركيب يحتوي رغبات حب لأحد الوالدين من غير جنس الطفل، وعدوانية مع رغبة في الموت نحو الوالد الآخر (من جنس الطفل نفسه)، وذلك ما يسمى بـ (عقدة أوديب) التي تتولّد عنها (عقدة الخصاء) نتيجة خوف الطفل من العقاب على رغباته المذنبة، ويتطوّر ذلك العمل العدواني أو الحقد تجاه الأب عند الصبي الممتزج مع عقدة الخصاء، "ليشمل كل أشكال السلطة، بما في ذلك سلطة أعراف المجتمع"(٦٧)، ولذا نجد هجاء (الأب السلطة) يكثر عند شعراء المجون الخارجين عن قوانين المجتمع ومواضعاته، المستخفّين بقيمه، من ذلك ما يروى عن مطيع بن إياس (ت. ١٦٦هـ) أنه كان عاقًا شديد

(٦٦) انظر آية ذلك من شعره: ابن عنين، **ديوانه**، ص٩٤.

(٦٧) روجيه موكيالي، **العقد النفسية**، ترجمة موريس شربل، منشورات عويدات، بيروت وباريس، ط١، ١٩٨٨م، ص٨٦؛ وانظر: ص٢٢-٢٥.

البغض لأبيه وكان يهجوه، فأقبل يومًا من بُعْد، ومطيع يشرب مع إخوان له، فلما رآه أقبل على أصحابه فقال:

هذا إياسٌ مـــقـــبـــلاً

جـــاءت به إحـــدى الهناتْ

لمـا رأيـتـك آتـيًـــــــــــا

أيقنت أنك شـــــر آت[٦٨]

لقد كان شرّاب الخمر آنذاك يعانون صراعًا مؤلمًا داخل نفوسهم، بين القيم وأعراف المجتمع وبين أفعالهم، ويعانون عدم قدرتهم على ضبط شهواتهم؛ فيكابرون متظاهرين بأن الخمرة تمنحهم غاية السعادة، ويموّهون بالإعلان عن الشعور بالذنب[٦٩]، ويوغلون في الشـــرب ثورةً على حـــدود الدين، وسلطة السلطان، وسلطة المجتمع، وهذه السلطات هي في الوعي البـاطن ممثّلة لسلطة الأب، فـلا عـجب أن يهـجـو بعضهم الأب صراحة، فهجاؤهم إياه ليس له في ذاته، بل للسلطة التي يرمز لها، كلِّ سلطة.

وتتجلّى عقدة أوديب (كراهية الأب) في شعر ابن بسام (ت. ٣٠٢هـ)، فقد اتخذ والده هدفًا لهجائه، وأكْثَرَ من القول فيه، وتمنّى موته في كثير من هجائياته - وإن من مظاهر تلك العقدة أن يتمنى الطفل موت والده - من ذلك قوله:

(٦٨) الأصبهاني، **الأغاني**، ١٣/٣٢٣.

(٦٩) انظر: رجاء أحمد صادق، **الخمريات في العصر الأموي**، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٩م، ص٢٠٩-٢١٠.

هَبْكَ عُمِّرتَ عمر عشرين نَسْرًا
أتُرى أنّني أمـــوت وتبـــقَى؟!
فلئنْ عِـشتُ بعـد يومك يومًـا
لأشُـقَّنَّ جـيبَ مـالِكَ شَـقًّـا(٧٠)

وقوله:

لقد أمن الدنيا ولم يخش صرفها
ولم يدر أن المرء رهن الفجائع(٧١)

وقوله:

شِـدْتَ دارا خِلْتَـهَـا مكرُمـةً
سلّط الله عليـهـا الغَـرَقَـا
وأرانيك صـريعًـا وسْطهـا
وأرانيـهـا صـعـيـدا زَلَقًـا(٧٢)

وبما أن عقدة أوديب "أهم العقد النفسية جميعها، ويقال لها العقدة الأم، أو الأساس، أو النواة، لأن كل العقد الأخرى تشتق منها بطريقة أو بأخرى"(٧٣)، وبما أن غاية تجليها وظهورها كانت في شعر ابن بسام، فإننا لا نعجب إذا رأينا

(٧٠) إبراهيم النجار، من **شعر ابن بسام في الهجاء** (جزء من كتاب: **شعراء عباسيون منسيّون**)، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٩٧م، ٤/ ١٧٦.

(٧١) إبراهيم النجار، **من شعر ابن بسام في الهجاء**، ٤/ ١٧٥.

(٧٢) إبراهيم النجار، **من شعر ابن بسام في الهجاء**، ٤/ ١٧٧.

(٧٣) د. عبدالمنعم الحفني، **الموسوعة النفسية الجنسية**، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط٣، ٢٠٠٠م، ص٥٠١.

شعره يشفّ عن عقد أخرى متطورة عن هذه العقدة الأساسية، أهم تلك العقد وأظهرها عقدة (الإهمال)، وعقدة (الأخ)، أما عقدة الإهمال فهي ناتجة عن الحرمان العاطفي، وتؤدي في شكلها الخطر إلى قطع كل صلة لصاحبها بالأشخاص القريبين منه(٧٤)، وهو ما رأيناه عند ابن بسام الذي لم يقصر هجاءه على والده بل هجا أخاه وعمه وابن عمه، (وسترد بعض هذه النصوص فيما يستقبلك)، وأما عقدة الأخ أو عقدة قابيل فهي ناتجة عن الغيرة أو التنافس بين الإخوة(٧٥)، وإنما أشرت إلى وجود هاتين العقدتين في هذا الموضع من البحث لأؤكد بوجودهما وجود عقدة أوديب؛ إذ هما من نسلها، وأن هجاء الأب في شعر ابن بسام ناتج عن هذه العقدة.

إننا إذا حلّلنا شخصية ابن بسام نجد أن شخصيته معقدة، وأن عقدة أوديب قد أثرت في حياته تأثيرا بالغًا، إذ نمت كراهية الأب المتسلط في لاوعيه، واقترن بها (إهمال) له، واهتمام بأخيه، ثم خسارة (المنافسة مع أخيه)، وبرز كل ذلك التعقيد في شعره من خلال هجاء الأب أولاً، ثم هجاء الأخ، والأقارب، وكأنما يريد أن ينعزل بذاته انعزالا يائسًا.

ولا بد أن أشير إلى أن شعر ابن بسّام في أبيه صادف زمنا أدبيّا اشتهر فيه بعض الشعراء بالتولّع في مهجو واحد، يكررون القول فيه، ويتفنون في المعاني المضحكة؛ حتى يغدو

(٧٤) انظر: روجيه موكيالي، **العقد النفسية**، ص٨٦. وانظر: ص٧٣-٧٦ .

(٧٥) سيرد حديث عنها فيما يستقبلك. وانظر: روجيه موكيالي، **العقد النفسية**، ص٨٦. وانظر: ص٧٨-٨١؛ د. عبدالمنعم الحفني، **الموسوعة النفسية الجنسية**، ص٥١٤-٥١٦.

كاريكاتورا يتلقفه المجتمع الأدبي، وينتظر الجديد من نصوصه، ويقلّد بعض الشعراء بعضهم في القول فيه، ويتنافسون في ذلك، حتى يصير ذلك القول سنة أدبية، ويشيع ، وربما يكون لفرط شيوعه مثلا[٧٦]، ومن تلك الظواهر ما أشار إليه الثعالبي (ت. ٤٢٩هـ) في قوله: "وسار حمار طياب مثلاً كبغلة أبي دلامة في الضعف وكثرة العيب، وطيلسان ابن حرب، وشاة سعيد في كثرة ما قيل في كل منهما"[٧٧]، والذي يجمع بين أولئك الشعراء أنهم ليسوا من الفحول الذين ينفتح أمامهم البلاط وسبل العطايا، وأن شعرهم لم يلق القبول الذي لقيه بعض أقرانهم، فسعوا إلى نيل الشهرة عن طريق طرق غرائب لم تُطرق من الموضوعات، فلما التفت إليهم المتلقي متعجبا أوغلوا في هذا العجب، ودانت لهم الشهرة، فاستمرؤوا ما هم فيه[٧٨]، ويمكن أن يردّ هذا السعي وراء الشهرة إلى عقدة (الإهمال)، إذ هي في شكلها المتوازن تدفع إلى البحث عن إعجاب الآخرين، والبحث عن الشهرة أو المجد، وتجميع أدلة الجدارة

(٧٦) انظر: إبراهيم بن محمد أبانمي، **هجاء غير الإنسان في شعر المشرق من القرن الثاني إلى نهاية القرن السابع: موضوعات الهجاء ومحركات القول وخصائصه**، دار عالم الكتب الحديث، الأردن، ط١، ٢٠١٢م، ص٦١، ٧٤-٨٢، ٢١٦-٢١٩.

(٧٧) الثعالبي، عبدالملك بن محمد، **ثمار القلوب في المضاف والمنسوب**، تحقيق: إبراهيم صالح، دار البشائر، دمشق، ط١، ١٤١٤هـ،١/٥٥٠-٥٥١.

(٧٨) انظر: د. عبدالله بن سليم الرشيد، البحث عن الذات / نظرات في شعر بعض المغمورين في العصر العباسي، **مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية**، (العدد ٤٣)، رجب، ١٤٢٤هـ، ص٣٨٩-٤٢٣.

والاستحقاق أو القيمة الشخصية الثابتة[٧٩]، ومن ذلك أن يقرَّ للفرد بالشاعرية، ويتلقف الناس ما يقول!

ومما يؤكد اندراج هذا الشعر في سلك تلك الظواهر الأدبية المتطلّبة للشهرة أن بعض الشعراء قلّد ابن بسّام في قول بعض القطع، وهو ما درجوا عليه في سائر الظواهر كتقليد ابن الرومي (ت. ٢٨٣هـ) الحمدويَّ في هجاء طيلسان ابن حرب[٨٠]، وقد كاد يقلد ابن بسام في هجاء والده، ولكنه لم يفعل، أو لم يصل إلينا من شعره هذا إلا بيت واحد هو:

لو كان مثلك في زمان محمد
ما جاء في القرآن بر الوالد[٨١]

وممن قلد ابن بسام صراحة أبو أحمد بن أبي بكر الكاتب (ت. قبل ٣٥٠هـ) فقد "كان يجري في طريق ابن بسام، ويقفو أثره في عبث اللسان"[٨٢]، ومما قاله في هجاء أبيه متمنيًا موته:

لي والدٌ متحاملٌ
من غير ما جرم عملتهْ
إن لم يكن أشنى إليَّ
من المنون فلا عدمته[٨٣]

(٧٩) انظر: روجيه موكيالي، **العقد النفسية**، ص٨٦ . وانظر: ص٧٦.
(٨٠) انظر: ابن الرومي، علي بن العباس، **ديوانه**، تحقيق: د. حسين نصار، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط٣، ١٤٢٤هـ، ٢٠٥/١، ٢٣٠/١، ٥٧٣/٢، ٩٩٤/٣، ١٢٣٠/٣، ١٤١٥/٤، ١٤٩٥/٤، ٢٦٤٦/٦.
(٨١) ابن الرومي، **ديوانه**، ٨٠٨/٢ .
(٨٢) الثعالبي، **يتيمة الدهر**، ٦٤/٤.
(٨٣) الثعالبي، **يتيمة الدهر**، ٦٥/٤.

إن تقليد شعر ابن بسّام في هجاء والده يزيد من شرعيّة ذلك الشعر وقبوله، ويزيد من الاستخفاف بمنظومة القيم، ويؤكد أن مجتمع التلقي شريك في استنبات ذلك الشعر، بل وجدت خبرا غير شعري كأنما يشير إلى أن إظهار العقوق للوالد، مما يتنافس فيه بعضهم آنذاك، وهذا عجب من العجب، يروى عن أبي العيناء (ت. ٢٨٣هـ) قوله: "أنا أول من أظهر العقوق لوالده بالبصرة، قال لي أبي إن الله تعالى قرن طاعته بطاعتي فقال: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤] فقلت: يا أبت إن الله تعالى أمنني عليك ولم يأمنك علي قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ [الإسراء: ٣١] "(٨٤)، فهل حسد أبو العيناء ابن بسام على الشهرة التي نالها بهجاء والده فزاحمه عليها؟ مع ملاحظة أن أبا العيناء أسنّ من صاحبه بنحو أربعين سنة.

وحاصل القول إن جملة أمور أسهمت في إنتاج طريقة ابن بسام في هجاء الوالد، فقد تعاضدت تلك العقد النفسية، ولم تقمعها القيم أو (الأنا العليا)، في فترة شهدت فضاءً أدبيًا يتيح للظواهر الشاذة أن تحاول إثبات وجودها، ويحتفي بما يلفت النظر منها ويذيعها، ويمنح صاحبها الشهرة(٨٥).

(٨٤) الصفدي، خليل بن أيبك، **الغيث المسجم في شرح لامية العجم**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤١١هـ، ٢/ ٢٧٠.

(٨٥) الحق أن بعض المؤلفين ترفّع عن إثبات نصوص هجاء الأب، وإن أشار إلى اشتهار ابن بسام به، وكأن الثقافة المدنيّة الدينيّة تنبذ هذا الشذوذ، ومن أولئك صاحب فوات الوفيات، وإن كانت إشارته إلى شهرة ابن بسام بذلك الهجاء - الذي وصفه بالخبيث!- تعني أن ابن بسّام قد حقّق الغاية التي سعى لها. انظر: الكتبي، محمد بن شاكر، **فوات الوفيات**، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٣م، ٣/٩٢.

وكل ذلك دال على تخلخل القيم التي ترى الأب قيمة عليا لا تمس.

بقي أن أشير إلى أن منظومة القيم القديمة التي تكاد تقدّس الوالد لم تتخلخل إلا لنشوء قيم حديثة أقوى منها، هي قيم المدنية واستقلال الفرد، وهو ما رأينا أثره فيما سبق.

أما قيم الدين الإسلامي، فإنها تؤكد عظم حق الوالد، وترسّخ ما كان له من إكرام وتوقير، فالإسلام يقرن حق الوالد بحق الخالق - ولا أظن شاعرا يهجو أباه قد تمثّل هذه القيم لحظة الهجاء - ومع ذلك فإن هجاء الوالد قد يقع عند من يتمسّك بهذه القيمة إذا اصطرعت قيمة إكرام الوالد مع قيمة دينية أعلى منها في معتقد الشاعر، ومن ذلك ما يروى عن الشاعرِ الشيعيّ السيد الحميري (ت. ١٧٣هـ) أن أبويه كانا ناصبيينِ يبغضان عليًا - فيما يروى - وسمعهما يسبانه بعد صلاة الفجر فقال:

لعن الله والديَّ جميعا

ثم أصلاهما عذاب الجحيم[٨٦]

يؤكد هذا الخبر أن القيم - مهما بلغ رسوخها - إذا تعارضت فإن القيمة العليا لا تعبأ بما دونها في سبيل توكيد ذاتها، وقد رأينا فيما سلف أن الشاعر الجاهلي يتجرأ على هجاء قومه إذا أخلوا بالقيمة الكبرى (الفرد جزء من الجماعة)، أما هنا فإن السيد الحميري لم يتجرأ على قيمة

(٨٦) الكتبي، **فوات الوفيات**، ١٨٨/١.

(إكرام الوالدين) إلا وقد أخلا بالقيمة الكبرى عند الشيعة: (عليّ الوليّ)، بل تجاوزا ذلك إلى سب علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

البتر: هجاء الابن:

لم يكن هجاء الابن في منظومة القيم القبليّة ذا خطر كهجاء الأب، فالشرف والنبل موروث من الآباء لا يُستَمَدُّ من الأبناء إلا على سبيل العدد والنصرة، فإذا أخل الأبناء بقيمة آبائهم – وهي القيمة العليا – أو أخلوا بواجباتهم تجاههم من البر والنصرة فإن الثقافة تستسهل هجاءهم، وكأنها تحمي نفسها بتقويم كل أود أو مساس بقيمة (الأب) وهي قيمة ضامنة وحدةَ القبيلة، وتوارثَ أعرافها وقيمها، وتماسكَ بنيتها؛ ولذلك نجد هجاء الأبناء العققة كثيرًا في الشعر قبل القرن الأول(٨٧)، وخير ما يستشهد به في صراع القيم هذا ما يروى عن العجاج (ت٩٠هـ) يهجو بنيه:

إنَّ بنيَّ للئامٌ زهدهْ
ما ليَ في صدورهم من مودهْ
إلاّ كودِّ مسدٍ لقرمدهْ(٨٨)

وكان ابنه رؤبة (ت. ١٤٥هـ) شاعرًا، بل كان شاعرًا نزّاعا إلى حفظ الأصول وإذاعتها، ويعرف أن من الأصول الثقافية

(٨٧) مما يشهد لهذا أن صاحب (العققة والبررة) أورد خمسة وثمانين بيتا من القول في الأبناء، يقابلها ثمانية عشر بيتًا من القول في الآباء، بعضها لا يكاد يكون هجاء. انظر: أبو عبيدة، **العققة والبررة**، ص٣٥٢-٣٧٠.

(٨٨) الجريري، **الجليس الصالح الكافي**، ٨٧/٤ .

رد الهجاء بالهجاء لتنقية ما يلحق بالمهجو من عار، ويعرف أيضا أن الأب قيمة لا تمس، وحين اصطرعت هاتان القيمتان انتصرت قيمة الأب، فلم يجب والده هجاءً، بل أجابه اعتذارا وافتخارا، فقال:

إنَّ بـنـيـكَ لـكـرامٌ مـجـدهْ
ولـو دعـوتَ لأتـوكَ حـفـدهْ
عـجـاجُ مـا أنت بأرض مـأسـدهْ

والحظ ألفاظ أبيات رؤبة تجدها مستمدة من ألفاظ معجم الفخر القبلي من (الكرم والمجد)، وخاصة كلمة (دعوت) فإجابة الداعي من سمات العربي الشجاع، الذي يحفظ قبيلته، كما يحفظ الشاعر قيمها، والذي يعنيني هنا أن العجاج حين هجا أبناءه لم يكترث، ولكن رؤبة لم يستطع رد الهجاء بالهجاء، ما يؤكد انتصار قيمة (الأب) على قيمة رحض الهجاء بالهجاء.

ولا يعني ما تقدّم أن هجاء الابن لا يلحق عارًا بأبيه الهاجي البتة، وأن ذلك الهجاء هيّن في منظومة القيم القبليّة، وأنه لا يناقض الاعتداد بالذات والفخر بالأصول، بل إن ذلك الهجاء يحير على الأب، أليس هوان الأبناء موروثًا من آبائهم كعزتهم تماما؟ ولكن الثقافة تحمي نفسها بنفي كل من يهتك بعض قيمها، فتبيح الجرأة على القيم الصغرى لصالح الحفاظ على القيم الكبرى، فتصير منافاة القيم تعزيزا لها، وعلى ذلك فإن من كان من الآباء معتدّا بذاته شديد الافتخار بها لا يهجو أبناءه وإن أساؤوا؛ لأنه يدرك

قانون القبيلة الذي يرى هوان الابن من هوان أبيه، مثال ذلك ما جرى من أمر عقيل بن علفة (ت. نحو ١٠٠هـ) وكان شاعرًا شريفًا لا يَرَى أحدا فوقه "تزوج إليه يزيد بن عبد الملك بن مروان ويحيى بن الحكم أخو مروان، وخطب إليه إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي وهو خال هشام بن عبد الملك فأبى أن يزوجه وكان غيورًا جافيًا وأراد أن يضرب ابنته بالسيف غيرة عليها فمنعه أخوها، ورماه بسهم فانتظم فخذيه، فقال عقيل:

إن بنيّ ضرّجوني بالدم
شنشنةٌ أعرفها من أخزم
من يلق أبطال الرجال يكلم
ومن يكن ذا أَوَدٍ يقوّم"(٨٩)

ومهما يكن من أمر القصة واختلاف رواياتها وأسباب الخصومة فالمتواتر في الأخبار أنه كاد يقتل ابنته أو ابنه لفرط الغيرة، والثابت في الشعر أن ابنه رماه بسهم، وضرّجه بالدم، فكان حق الابن أن يهجوه أبوه، أو أن يسكت فلا يقول الشعر مدحا ولا ذما، ولكنه لفرط الاعتداد بالذات، ومراعاته لشرفه، ولوعيه بارتباط الحسب والنسب، وأن ما يمس أبناءه سيرتد عليه؛ لأن الخمول موروث كالشرف؛ لأجل ذلك كله لم يهج ابنه، أو أبناءه الذين تمالؤوا عليه، بل مدحهم إذ وصفهم بالأبطال، ونسب النقيصة إلى نفسه (ذا أود)، ولن تضيره

(٨٩) المرزباني، **معجم الشعراء**، ص١٦٥؛ وانظر رواية أخرى لقصة الأبيات: أبو عبيدة، **العققة والبررة**، ص٣٥٧-٣٥٨.

هذه النقيصة شيئا، إذ هي ليست من الأيقونات الهجائية كالبخل والجبن، كما أن أعراف التلقي لم تعتد هجاء المرء نفسه، ولا تضع لذلك محلا في الرفع والوضع، وبهذا استطاع عقيل أن يستلب مضمون القصة السلبي، ويُرَئِّس معانيَ كانت هامشية، ويهمّش عناوين القصة، إذ لو عُرضت القصة كما وقعت، واستجاب رد فعله للمتوقّع، لاشتهر حمقه وجهله على أبنائه، وعقوق أبنائه ونَبْلهم إياه، ولما نُظر إلى بطولة أبنائه، وغيرته لفرط شرفه كما يدّعي.

إن الثقافة القبلية منغلقة تسعى إلى الحفاظ على ديمومتها واستمرارها عن طريق بتر كل عرف خارج عن أصولها، وإن اضطرها ذلك إلى التخلي عن بعض ما تعتدّه من القيم في سبيل الحفاظ على القيم الكبرى الرئيسة، "ومن غير الممكن أن نتصور الثقافة على أنها... قوة غير عاقلة، بمعنى أنها لا تعقل فعلها، ولا تنتصر لذاتها"(٩٠)، فهي إذا حدثت في داخلها معارضة تناوئها "لا بد أن تنهض للدفاع عن سيادتها فتضرب رموز المعارضة، وحالات الخروج"(٩١)؛ ويناظر ذلك البترَ الثقافي بترٌ هجائي وهو أن الشعراء قبل القرن الثاني يبترون أبناءهم إذا خرجوا عما ينتظر منهم، وذلك البتر هو تمني أنهم لم يولدوا، أو تمني موتهم، ومن ذلك قول يحيى بن سعيد أبي عمران الأعمى (ت؟) من قصيدة:

(٩٠) عبدالله محمد الغذامي، **ثقافة الوهم: مقاربات حول المرأة والجسد واللغة**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء وبيروت، ط٢، ٢٠٠٠م، ص١٣٩.

(٩١) عبدالله محمد الغذامي، **ثقافة الوهم**، ص١٣٩.

وإن كنت شيئا فالتمس لك والدا
أبا لك تدعوه أبا حين تُسأل[٩٢]

وقول أعرابي :

إن بنيّ كلّهم كالكلبِ
أبرّهمْ أولاهمُ بسبّي
لم يغنِ عنهم أدبي وضربي
ولا اتّساعي لهمُ ورُحبي
فليتني متُّ بغير عَقْب
أو ليتني كنت عقيم الصّلب[٩٣]

وقول حضين بن المنذر (ت. ٩٧هـ) يهجو ابنه غيّاظًا:

وسُمّيت غيّاظًا ولستَ بغائظٍ
عَدُوًّا ولكنّ الصديقَ تغيظُ
فلا حفظ الرحمن روحَك حيّةً
ولا هي في الأرواح حين تفيظ[٩٤]

وإذا نظرنا في هجاء الأبناء في القرن الثاني وما بعده وجدناه قريبا مما كان قبل ذلك، وخاصة في (البتر) الناشئ

(٩٢) أبو عبيدة، **العقلة والبررة**، ص٣٥٥.

(٩٣) القالي، أبو علي إسماعيل، **الأمالي**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ، ٢/١٩٧-١٩٨.

(٩٤) القالي، **الأمالي**، ٢/١٩٨.

من شدة الغيظ من فعلات الابن، وعقوقه، ومنه قول أبي القاسم الدينوري (ت. نحو ٣٩٠هـ) في ابنه أبي طاهر:

لو كنتُ أعلمُ أني والدٌ ولدا
يكون لا كان في عيني كالرمدِ
فلا أسرّ على طول الحياة به
جببت نفسي كي أبقى بلا ولد
كم قد تمنّيت لو أن المنى نفعت
ولا مردّ لحكم الواحد الصمد
وقلت لو أن قولي كان ينفعني
يا ليت أنّي لم أولد ولم ألد[٩٥]

ولكن هذا الهجاء الذي يشبه الهجاء القديم في جدِّه قليل في القرن الثاني وما بعده، إذ غالب ما أعثر به من النَصوص في هجاء الأبناء آنذاك لا يتضمن قيما حقيقية، بل هو في بعضه قريب من المعابثة ومعافسة الأبناء، يقال بأيسر سبب، وأهون لفظ، وما مردّ تلك القلّة - أزعم - إلا لأن الهجاء من الأعمال القولية الغضبية التي تستدعي الدعاء وتمني الشر، وهو في اللاوعي عند الأب مرهوب، نظرا لما تتضمنه الثقافة الإسلامية من محق العاق، واستجابة دعوة الوالد، أضف إلى ذلك أن العلاقات الحوارية الشفوية الغضبية بين الوالد وابنه تستنفد ما يمكن أن يقال في الشعر، وتغني عنه؛ إذ تمنح

(٩٥) الثعالبي، **يتيمة الدهر**، ٤/١٤٠.

الأب التنفيس الذي يحتاج، على خلاف علاقة الشاعر بسائر أقاربه الذين لا يحق له شتمهم أو تأنيبهم علانية.

ومن أمثلة تلك النصوص التي وصفتها بالمعافسة والمعابثة: ما يروى أن محمد بن يسير (ت. نحو ٢١٠هـ) بعث ابنًا له جسيمًا في حاجة فأبطأ، ثم عاد ولم يقضها، فقال فيه:

عـــقله عـــقل طائر
وهـو في خلْقــةِ الجــملْ

فأجابه:

شَـــبَـــهٌ منك نـالني
ليس لي عنه منتــقل[٩٦]

وقول مرجى بن بتّاه (ت بعد ٥٠١هـ) في ولده:

هَيْـهـاتَ أَن يُفلِحَ مـسـعـودُ
وفـيـهِ كـالجـوزة تعـقـيـدُ
وليس للجـوزة من كسـرها
بُدٌّ وكسرُ الجوزِ محمودُ[٩٧]

وله في ولده أيضًا:

لـي ولـدٌ لا وَلَـدتْ أُمُّـــــــهُ
أَعْـذِلُهُ الدَّهْـرَ فـمـا يَرْعَـوي

(٩٦) أبو حيان التوحيدي، علي بن محمد، **البصائر والذخائر**، تحقيق: د. وداد القاضي، دار صادر، بيروت، ١٤٠٨هـ، ٧٦/٤.

(٩٧) الأصبهاني، عماد الدين، **خريدة القصر وجريدة العصر - قسم شعراء العراق**، تحقيق: محمد بهجة الأثري، نَشَرَتْهُ: وزارة الإعلام، العراق، ١٩٧٣م، ج٤، مج٢، ص٥٣٧-٥٣٨.

الله قـد صـيَّـرَه أعـوجًـا

يا ذَنَبَ الكلبِ أما تَستوي[٩٨]

وهذه النصوص لا تعد في الأدب الرفيع الذي احتفل له قائله، بل هي نصوص مستطرفة اعتنت بالصورة السائرة، والمعنى المضحك، يشهد لهذا أن محمد بن يسير كان من مشاهير شعراء الهزل، وهو صاحب القصيدة المشهورة في هجاء شاة منيع[٩٩]، أما مرجى بن بتاه فكان من الهجّائين أصحاب المضاحك وصفه صاحب الخريدة بأنه "كان هجّاءً، على الثلب هجامًا، لا يرى عن الهجاء البتة إحجامًا... فكم أجرم مرجّى، ومَزَح في هجو مُرٍّ جَنَىً[١٠٠] حين هجا، حتى هجا ولده وامرأته وخاله"[١٠١]، ولم يوجد أمثال هؤلاء الذين احترفوا الإضحاك بالهجاء قبل القرن الثاني، بل كان الهجاء جدًّا - في عامّته - أو نقائض، وإن اندراج هجاء الأبناء في سلَك المضاحك ليدل على اختلاف التركيب الثقافي للعقل العربي، ولأعراف التلقّي.

ونستطيع قَسْمَ هجاء الأبناء جدًّا بعد القرن الثاني قسمين، قسمٍ ينبعث بوجع العقوق، مَثل ما تقدّم من قول أبي

(٩٨) الأصبهاني، **خريدة القصر**، ج٤، مج٢، ص٥٣٨.

(٩٩) الأصبهاني، **الأغاني**، ٢٠/١٤.

(١٠٠) في الأصل: (ومزح في هجو مُرَجًّى)، وأظن صواب التصحيف ما أصلحت، بحيث يقع التجانسَ الخطيّ بين اسم الشاعر (مرجّى) وكلمتي (مر جنى). والذي يعنيني إثباته كلمة (مَزح) ولم يقع فيها تصحيف. وأنه هجا نفرًا من أقاربه الأدنين.

(١٠١) الأصبهاني، **خريدة القصر**، ج٤، مج٢، ص٥٣٢.

القاسم الدينوري، وهو قريب في معانيه وبنيته من الشعر القديم، وقسم ينبعث من خيبة أمل الوالد فيما أعدّ ولده له، ويقترب في كثيرٍ من نصوصه إلى العتاب حتى يكاد يخرج من الهجاء، ونلحظ فيه أن معايير المجد تغيّرت عنها في القديم، فلم تعد الكرم والشجاعة بمفهومها القديم، بل صارت الوجاهة والترقي في مراتبها، مثال ذلك ما جرى بين المعتمد بن عباد (ت. ٤٨٨هـ) وابنه، إذ وصل المعتمد" إلى لورقة لمحاربة العدو، وجهز إليه عسكرا وأمر ابنه الراضي أن يتقدم عليه، فاعتذر وأظهر المرض، فتقدم عليه المعتمد بنفسه ولاقى العدو فكانت الدائرة على المعتمد، فحجب عنه وجه رضاه، وكتب إليه بشعرٍ منه:

الملك في طيِّ الدفاترْ
تخلّ عن قود العساكرْ
طفْ بالسرير مسلّمًا
وارجع لتوديع المنابر
وازحف إلى جيش المعا
رف تقهر الحَبْر المناظر
واضرب بسكين الدوا
ة مكان ماضي الحد باتر
واقعد فإنك طاعمٌ
كاسٍ وقل هل من مفاخر"[١٠٢]

(١٠٢) الكتبي، **فوات الوفيات**، ٤/٣٢٦-٣٢٧.

يشير النص إلى نكوص ابن الشاعر عن قيادة الجيش؛ ولكنه لا يهجوه بالجبن!، أو ينقص من شجاعته، بل يهجوه بترك القيادة، والرضا بالخمول، وعدم معرفة أسباب الرئاسة، وينبهه إلى أن القعود على السرير لا يتأتّى بالعلم فحسب، بل بتصدر الجيوش، وترقي المنابر، فباعث النص الأهم هو استياء الوالد من تراخي الابن في تحقيق سيادته ورئاسته، وليس تحقيقه قيمة الشجاعة، والحفاظ على الجماعة، وبهذا فإن الهجاء يتطوّر خطوة أخرى باتجاه الفردية، إذ كان الفرد يهجى إذا تفرّد ولم يحقق قيم الجماعة، فصار يهجى إذا لم يحقّق فرديّته، وإن تأكيد الذات في الجماعة والتطلع إلى الترقي في نظامها هو لون من الفردية غير خاضع للسلطة إلا في حدود، وكيف يخضع للسلطة من يزاحم حرّاسها، ويرجو أن يسوسهم؟!

ومثله ما قاله أمين الدولة ابن التلميذ الطبيب (ت. ٥٦٠هـ) في ولده "ولم يكن مدركًا لصناعة الطب، وكان في سائر أحواله بعيدًا عما كان عليه أمين الدولة"[١٠٣]، فقال فيه:

أشكو إلى الله صاحبا شكسا
تسعفه النفس وهو يعفسها
فنحن كالشمس والهلال معا
تكسبه النور وهو يكسفها[١٠٤]

(١٠٣) ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أحمد، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، تحقيق: د. نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، ص٣٥٣.

(١٠٤) ابن أبي أصيبعة، **عيون الأنباء**، ص٣٥٣.

قال هذه الأبيات العتابية والد قد يئس من ابنه اليأس كله، حتى إن مما يروى أنه قصّر في عزاء صديق له مات ولده، فعاتبه صديقه فقال: "والله أنا أحق بالتعزية منك؛ إذ مات ولدك وبقي مثل ولدي"(١٠٥)، وعلى ذلك فإنه لم يهجه هجاء مقذعًا، بل عرّض به تعريضًا حتى وصفه بالصاحب في بيتيه، وكأنه يريد أن يبعد عن ابنه الظِّنَّة، وهذا أقرب إلى العتاب، ولعل ما يوصف به أمين الدولة من مروءة ونبل في الخصومة وتجاوزٍ عن الزلل(١٠٦) قد أثّر في اختيار معاني هذين البيتين ولطّفهما.

والملحوظ أن المأخذ على الولد ليس تقصيره في حق والده، أو حق الجماعة، بل تقصيره في حق ذاته، وخمول ذكره، وعدم مساعدته نفسه - وهي ذات همّة تسعفه لو أراد - وعدم إفادته من والده، وهكذا يتأكد ما مرّ ذكره من أن هجاء ذوي القربى يتطور درجة باتجاه الفردية، فقد كان تفرد الإنسان وانفصاله عن الجماعة مأخذا قبل القرن الثاني، فصار عدم تحقيقه فرديّته هو المأخذ، وصار الأب يرجو لابنه أن يكون فردًا مذكورًا، بغض النظر عن علاقته به، وبرّه، وتحقيقه مُثُل الجماعة.

ولست غافلا عما في كلمة (يكسفها) من إشارة إلى ضد ما أشرت إليه من الفردية، إذ إن (كسف الأب) دال على تأثير خمول الابنِ على أبيه، والفردِ على الجماعة، وأن هجاءه لم

(١٠٥) ابن أبي أصيبعة، **عيون الأنباء**، ص٣٥٤.

(١٠٦) انظر طرفًا من أخباره: ابن أبي أصيبعة، **عيون الأنباء**، ص٣٤٩-٣٥٤.

يكن لعدم تحقيق فرديته فحسب، ولكن خموله مؤثر على والده، إنني إذ أدرك ذلك هنا، وأدركه في نص المعتمد أيضًا -إذ أراد الوالد فرديّة لابنه غير الفرديّة التي أرادها ابنه لذاته - أدرك أنَّ الثقافةَ المتسلسلةَ المتوارثة لن تذوب وتدرس، بل سيظل تأثيرها ماثلا في اللغة، ومتمثّلا في النفوس، وستظلّ حيّة ما بقيت اللغة حية، لما للغة من أثر في تشكيل بنية العقل الإنساني، ولكن تسلسل هذه الثقافة وتناسلها لا يلفت النظر قدرما تلفته الظواهر المعارضة للمنطق الطبيعي في ذلك التسلسل مهما ضؤلت، وهو ما لمسته في هذين النصين!.

قابيل : هجاء الأخ

لم أجد في الشعر الجاهلي هجاء للأخ البتة، ثم وجدت بوادره في القرن الأول في ثمانية أبيات، ثم زاد في القرن الثاني حتى أحصيت سبعة وخمسين بيتا، ولقد كان الأخ عضد الرجل، وناصره، وهو للأسرة بمنزلة ابن العم للقبيلة، كلاهما حافظ لوجود المكوّن الاجتماعي، وذخيرة يعتدّها الرجل عند النوائب، ولفرط تشبّع كلمة (أخ) بمعاني النصرة والذخر والعون... صار الصديقُ الذي لا يذخر دون صديقه شيئا من نفسه وماله يسمّى أخًا[١٠٧]، وذلك فيما أحسب

(١٠٧) وتقدّم تفضيل الكندي للصديق على القريب في قوله: "الأب ربٌّ، والأخ فخ، والعم غمٌّ، والخال وبالٌ، والولد كمدٌ، والأقارب عقارب، وإنما المرء بصديقه"!، وهو تفضيل له شواهده في الشعر، إذ فشا القولُ في الإخوان الأصدقاء واللجوء إليهم عند الشدائد، حتى صار معادلاً موضوعيًّا للقول القديم في الأقارب !، دالاً على ما طرأ على الروابط القديمة من تغيّرات. الحصري القيرواني، **نور الطرف ونَور الظرف**، ص٢٢٤.

تطوّر لغوي أحال المجاز إلى شبه حقيقة لفرط استعمال الكلمة في غير ما وضعت له، فلم تكن في أصل وضعها تدل إلا على معناها البيولوجي، ولكن الثقافة القبليّة حمّلتها تلك الدلالات، وشحنتها بها، يقول قيس بن عاصم (ت. نحو ٢٠هـ)[١٠٨]:

أخَاكَ أَخَاكَ إنّ مَن لا أخًا له
كَساعٍ إلى الهَيْجَا بغَيْر سِلاحِ
وإنّ ابن عَمّ المَرْء فاعْلَم جَناحُهُ
وهل ينْهض البازِي بغَيْر جَنَاح[١٠٩]

أوردت البيت الثاني هنا لأثبت أن المقصود بالبيت الأول الأخ ابن الأب، وليس الصديق، إذ استدعى ذكره ذكر ابن العم بعده، والذي يعنينا أننا إذا علمنا هذه المكانة الرفيعة للأخ في الثقافة القبلية لم نعجب أنها تتحاشى هجاءه، فإذا رددنا النظر إلى وجود هجاء للأب وللابن دون الأخ - وليس صون الأخ عن الهجاء بأولى منهما-؛ أرجعناه إلى أن الأخ إذا رأى من أخيه ما يكره يستطيع اجتنابه، فليس مثل الأب والابن في لزومهما للرجل لزوم الأصل والفرع، وليس تحاشيهما - إذا بدرت بادرة العداوة - يسيرا.

ثم لما تخلخلت قيم القبيلة، وبرز دور الدولة الحامية أفرادها عوض العشيرة هان على الأفراد أن يتخلوا عن

(١٠٨) وتروى لمسكين الدارمي كما نصّ صاحب الحماسة البصرية. انظر: الهامش الموالي.

(١٠٩) البصري، **الحماسة البصريّة**، ٢/٩١٥-٩١٦.

إخوانهم، وصاروا لا يتحرّجون من الهجاء إذا وقع بينهم وبين إخوانهم حسد أو تنافس، وخاصة أن التنافس بين الأخوين منذ الصغر قد يورث عداوة كامنة تظهر آثارها متى هيجت، وهو ما يسمى في علم النفس (عقدة الأخ) أو (عقدة قابيل)، وهي عقدة ناتجة عن الغيرة والتحاسد أو التنافس بين الإخوة، وخاصة حين يستأثر الطفل الصغير بالاهتمام والرعاية اللتين كانتا مقصورتين على الكبير، فتنمو عنده كراهية وغيرة منه، تتطور إلى عقدة مؤثرة(١١٠)، وإن أقدم نص وجدته في هجاء الأخ ما قاله عبدالرحمن بن الحكم في أخيه الحارث وقد نكص عن غزاة استعمله عليها معاوية بن أبي سفيان، فاستعفاه، فقال عبدالرحمن:

شنئتك إذ رأيتك حوتكيّا(١١١)

قريب الخصيتين من التراب

فليتك حيضة ذهبت ضلالاً

وليتك عند منقطع السحاب(١١٢)

والملحوظ أن الهجاء نابع من كراهية عميقة أنتجت التصريح بها في قوله (شنئتك) وهي كراهية قديمة ليست حادثة، إذ لم يشنأه بعد نكوصه، بل منذ رآه (حوتكيا)، أي أنه يكرهه دائمًا منذ كان، كرهًا لا ينفك عنه مثل خلقته التي

(١١٠) انظر: روجيه موكيالي، **العقد النفسية**، ص٨٦. وانظر: ص٧٨-٨١؛ د. عبدالمنعم الحفني، **الموسوعة النفسية الجنسية**، ص٥١٤-٥١٦.

(١١١) الحوتكي: القصير الضاوي. انظر: **لسان العرب**، حتك.

(١١٢) الأصفهاني، **الأغاني**، ٢٦٦/١٣.

ليس عنها محيص ولا بديل، كما أنتجت هذه الكراهية تشويه خلقة المهجو (حوتكي، قريب الخصيتين من التراب)، وهو تجاوز للهجاء بالمعاني والقيم، كما درج الهجاء القديم إذا ابتغى الإيجاع، والملحوظ أخيرًا أنه أراد بتره من القبيلة بقوله: (ليتك حيضة).

وإن بوادر تخلخل نُظُم الجماعة تظهر أول ما تظهر عند المقرّبين من السلطان - كما في النص السابق - إذ يسعون إلى تحقيق فرديتهم، وينالون الحظوة في الدنيا بمقدار قربهم إليه، دون النظر إلى محلّهم في القبيلة، بل لا يكادون يحتاجونها؛ إذ لم تعد ضرورة للوجود، فالقرب من السلطان يغنيهم بالمال، وأجناد السلطان أمشاج من القبائل، فلا عجب أن يبدأ هجاء الأخ ثمّة، مع بدايات الحكم الجبري، وبدايات استقرار العرب في المدن مثل دمشق.

ثم إذا تقدمنا في القرن الثاني وما بعده نجد نصوص هجاء الأخ تتكاثر شيئًا فشيئًا، متناسبة طردًا مع استقرار الحياة المدنية، وتفتّت القبيلة، فلم يعد الأخ قيمة حافظة لوجود أخيه، وعضدًا يعز صاحبه، بل صار بعض الإخوة ينظرون إلى إخوانهم نظرة المنافس، فيحسدونهم إذا بزوهم، وليس لديهم من القيم ما يقمع هذه المشاعر السلبية، ومن ذلك ما يروى أنه قيل لأحمد بن عمرو (أخي أشجع السلمي) (ت. قبل ١٩٥هـ): "ما لك لا تمدح الملوك كما يمدحهم أخوك؟ فقال: إن أخي بلاءٌ عليّ وإن كان فخرًا! لأني لا أمدح أحدًا ممن يرضيه دون شعري ويثيب عليه بالكثير من الثواب

إلا قال: أين هذا من قول أشجع؟ فقد امتنعت من مدح أحد لذلك"[١١٣]!، ونتيجة لهذه المنافسة المادية صار بين الأخوين تعاتب وشحناء[١١٤]، ومنه أن أحمد دفع إلى أخيه قصيدة سأله إيصالها إلى الممدوح فتوانى، فهجاه بقوله:

وسائلةٍ لي: ما أشجع؟
فقلت: يضر ولا ينفعُ
قريبٌ من الشر واعٍ له
أصم عنً الخير ما يسمع
بطيءٌ عن الأمر أحظى به
إلى كل ما ساءني مسرع
شرود الوداد على قربه
يفرق منه الذي أجمع
أُسَبُّ بأني شقيقٌ له
فأنفي به أبدًا أجدع[١١٥]

إن أخا أشجع يعرف أن أخاه فخر له، ويصرح بذلك، ولكنه على ذلك يهجوه؛ إذ قيمة الفخر بالأخ، والاعتداد به لا تصمد أمام المكاسب الفردية، وحين خسر الشاعر المال أمام أخيه

(١١٣) الأصبهاني، **الأغاني**، ٢٣٧/١٨.

(١١٤) انظر طرفًا من أخبارهما وعلاقتهما: الصولي، محمد بن يحيى، الأوراق - قسم أخبار الشعراء، تحقيق: ج. هيورث. د. ن. الهيئة العامة لقصور الثقافة - سلسلة الذخائر (١٢٢)، ٢٠٠٤م، ص١٣٧-١٤٠.

(١١٥) الأصبهاني، **الأغاني**، ٢٣٧/١٨.

استيقظت كوامن حسده إياه، فهجاه هجاءً أردُّه إلى عقدة قابيل (كراهية الأخ)، والعجب أنه يحتال على الثقافة، فيزعم أنه يُسَبّ بأخيه؛ لأن أخاه عار، وأنه بهجوه يريد أن يقوّمه حتى لا يُسَبَّ به، وليس يعبأ برفض هذا السباب وتنقية العرض منه إلا محافظ على قيم القبيلة، واعٍ بأن ما يصيب أحد أفرادها يصيب الباقين، ولكنه ينقلب عَلَى هذا الوعي فيسب أخاه!، إنها حيلة يستخدم بها الهاجي الأعراف الثقافية لهدمها!، وقريب من هذا النص في الانقلاب على الثقافة قول عبد المحسن الصوري (ت. ٤١٩هـ):

قال لي أنت أخو الكلب وفي
ظنه أن قد تناهى واجتهد
أحمد الله كثيرا أنه
ما درى أني أخو عبدالصمد[١١٦]

وفي كلا النصين كأنما يعتذر الهاجي عن هجائه بإثبات أن ما قاله يعرفه الناس، وأنه لم يقل جديدا، ولم ينبش على

(١١٦) يخطئ من ينسب هذين البيتين إلى أحمد بن المعذل (ت قبل ٢٤٠هـ)، أخي عبد الصمد الشاعر، إذ هما من قول عبدالمحسن الصوري، المتوفى (٤١٩هـ)، أثبت ذلك معاصره الثعالبي في يتيمته، ويرجّحه أيضًا أن الصوري هجا أخاه بقطعتين أخريين، والثالثة أشكلُ أن تكون له، أما أحمد فيوصف بالتقوى والورع، ولن يهجو ورعٌ أخاه مقذعًا!، ورأيت أن أول من أخطأ في النسبة صاحب الوافي بالوفيات. والله أعلم. انظر: الثعالبي، **يتيمة الدهر**، ٣٠٥/١؛ الصوري، عبدالمحسن بن محمد، **ديوانه**، تحقيق: مكي السيد جاسم وشاكر هادي شكر، ط١، ١٤٠١ هـ، ٢/ ٧٨-٧٩، ص٨٤؛ الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، **الوافي بالوفيات**، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ، ١٢٠/٨.

أخيه خزيًا، وفي ذلك إشارة إلى بقاء قيمة الأخ، ومراعاة الشاعر أعراف المجتمع بعض المراعاة.

وإن أظهر من ظهرت عنده هذه العقدة ابن بسام، وقد مرّ بنا قبل أنه كان مصابًا بعقد نفسية مشتبكة جعلته يجرؤ على هجاء أقربائه، وقد هجا أخاه هجاءً منبعثا من حسد أكنّه منذ الطفولة، وكان يهجوه بجماله وماله!، ويشير إلى رذيلته ومؤاجرته!، في معنى يمسّ الشرف، ولا يُتَصَوَّر أن تقبله القيم القديمة بحال من الأحوال لو قاله البعيد فما بالك بالأخ القريب، وإنه لدليل على تخلخل تلك القيم في مجتمع المدينة، ولعل الجمال والمال مما بزّه أخوه فيهما، يقول:

قدْ كنتَ ممَّن يَهشّ النَّاظرونَ لهُ
تغضّ دونَك أسماعٌ وأبصارُ
فيا لدهرٍ مَضَى ما كانَ أحسنَهُ
إذْ أنتَ ممتنعٌ والشَّرطُ دينارُ
أيام وجهُك مصقولٌ عوارضُهُ
وللرياض على خدّيك أنوارُ
حانتْ منيَّتُهُ فاسودَّ عارضُه
كما تُسوَّدُ بعدَ الميّتِ الدَّارُ[١١٧]

وقوله:

حان المنية يا أبا العباسِ
فدع المكاس فلات حين مكاسِ

(١١٧) إبراهيم النجار، **من شعر ابن بسام في الهجاء**، ١٦٧/٤.

مـا بـال وجـهك بعـد كـثـرة نُوره
قـد سـوّدوه بحـالك الأنقـاس
أين الدنانيـر التي عُـوِّدتَهَـا
هيهات جاء الشَّعر بالإفلاس[١١٨]

وفي كلتا القطعتين تمنى الشاعر موت أخيه، ما يردّني مرة أخرى إلى ما افترضته سابقا من تمكّن عقدة (الإهمال) من نفسه، تلك العقدة التي تنتج عن عقدة (كراهية الأب) والحرمان العاطفي، والغيرة من الأخ، وقد تبلغ - إذا تفاقمت عند المصاب بها - حد قطع علاقاته بكل المقربين منه، وتمني موتهم والالتذاذ بالعزلة عن الناس[١١٩].

ومهما يكن من أمر فإن هجاء الإخوان ينشأ من الحسد والتنافس بينهم، ويُرَد إلى عقدة نفسية تنشأ منذ الطفولة، وقد كانت قيم القبيلة قبل القرن الثاني تقمع هذا الهجاء، ولا تسمح به، ثم لما تخلخلت تلك القيم مع الفردية والحياة المدنية بزغ الهجاء شيئًا فشيئًا.

انتفى حين اختفى: هجاء ابن العم

هجاء ابن العم على نقيض هجاء الأخ، كانت كثرته قبل القرن الأول ثم اضمحل شيئًا فشيئًا حتى كاد يختفي مع بداية القرن الثاني، وإن ما افترضته في الأخ ليصدق هنا، أعني أن الأخ لم يكن يُهْجى في الجاهلية لمحلّه الرفيع، ولأن

(١١٨) إبراهيم النجار، **من شعر ابن بسام في الهجاء**، ١٧٢/٤.
(١١٩) انظر: روجيه موكيالي، **العقد النفسية**، ص٨٦؛ وانظر: ص٧٣-٧٦.

منظومة القيم تعظّم محلّه، فما بال ابن العم خالفه فهُجِي دونه في الجاهلية؟ ثم تلاشى هجاؤه حتى درس؟

إن ما أظنه جوابا عن هذا السؤال أن الأخ أمسّ صلة بأخيه، ليس له عنه عوض، أما أبناء العمومة فكثير، بل إن كلَّ منتم لعشيرة الشاعر ابنُ عمه - فهذا الوصف لا يقتصر على أبناءِ العم لحًّا - ومن ثمة صار (بتر) أحدهم أيسر من (بتر) الأخ، وخاصة إذا كان ذلك في إطار المحافظة على قيم القبيلة - وقد تقدّم أن القيم ترضى بالنيل من أطرافها حفاظًا على أصولها - كما أن الشعر الذي قيل في هجاء ابن العم قليل جدا قياسا بالشعر الذي يذكر كظم الغيظ، والإغضاء عن الزلل مهما أساء ابن العم؛ فالإقدام على الهجاء خرق للأصول لا يكون إلا إذا لم يبق في قوس الحلم منزع، ومن تلك النصوص التي يفتخر أصحابها بالحلم عن ابن العم قول معن بن أوس (ت. ٦٤هـ):

وذِي رحمٍ قلّمتُ أظفارَ ضغنهِ
بحلميَ عنهُ وهوَ ليسَ لهُ حلمُ
يحاولُ رغمِي لاَ يحاولُ غيرهُ
وكالموتِ عندِي أنْ يعرَّ بهِ الرغمُ
وصبرِي علَى أشياءَ منهُ تريبُنِي
وكظمِي علَى غيظِي وقدْ ينفعُ الكظمُ[١٢٠]

(١٢٠) معن بن أوس، **ديوانه**، ص٤٠-٤٥.

وقول بعض بني أسد:

إن لان لنت وإن دبّت عـــقـــاربه
ملأت كفيه من صفح ومن كرم(١٢١)

ثم إن الشاعر الجاهلي - إذا أعيته المذاهب مع ابن عمه فهجاه - كان يتحاشى في الغالب تخصيص ابن عمّ معيّن بالهجاء، بل يعمّ القول أو يعرّض تعريضًا، ويخلط العتاب بالهجاء، ويذكر غالبا أنه يبتغي الصفح والصلح، لولا فَعَلاَت ابن عمه التي تحول بينه وبين ذاك، ولكنه لا يزال يرجو صلاحه، ويسعى إلى تبرئة نفسه بذكر تجاوزات ابن عمه عليه، تلك التجاوزات التي تتنافى مع قيم القبيلة، وخاصة البخل، والجبن، والحسد - وذكر الحسد كثير في هذه النصوص وهو مما يتميز به هجاء ابن العم - وهذا السعي إلى تبرئة النفس فيه إشارة إلى وعي الشاعر أنه ينتهك محظورًا، والنصوص التي تتضمن هذه المعاني كثيرة نسبيًا بعضها في الذروة، من ذلك قول ذي الأصبع العدواني (ت. نحو٢١ق. هـ) في نونيته:

وَلي ابنُ عَمٍّ عَلى ما كانَ مِن خُلُقٍ
مُختَلِفانِ فَأَقليهِ وَيَقليني
لاهِ اِبنُ عَمِّكَ لا أَفضَلتَ في حَسَبٍ
عَنّي وَلا أَنتَ دَيّاني فَتَخزوني
وَلا تَقوتُ عِيالي يَومَ مَسغَبَةٍ
وَلا بِنَفسِكَ في العَزّاءِ تَكفيني

(١٢١) العبيدي، **التذكرة السعدية**، ص٣٢٦.

وَلـي اِبـنُ عَمٍّ لَوَ انَّ الـنـاسَ في كَـــبَـــدٍ
لَظَلَّ مَـــحـــتَـــجِـــزًا بِـالنَّبلِ يَرمـــيـني
يا عَـمـرُو إلا تَدَع شَـتـمـي وَمَنقَـصَـتي
أضربكَ حَيثُ تَقولُ الهامَةُ اسقُوني(١٢٢)

وقد كرّر في سائر أبيات القصيدة فخره بنفسه فخرًا يعرّض فيه بابن عمه، ويذكر أنه لا يطلب العداوة، ويتمنى أن يصلح أمره مع ابن عمه، لولا أن ابن عمه ينأى بنفسه عنه، حتى قال في خاتمة النص:

يا عَـمـرُو لَو لِنتَ لي أَلفَـيـتَني يَسَـرًا
سَـمـحًـا كَـريمًا أُجـازي مَن يُجـازيني

وإن هذا النزاع بين العداوة وتمني الصلح لا نرى مثله في الهجاء المعتاد، ويشير إلى الرابطة الوثقى بين أبناء العمومة. كما يلحّ هاجي ابن العم على ذكر إساءة ابن عمه إليه، وإصراره على تلك الإساءة، وأنه لا يرعوي مهما نُصِح، وأن الشاعر لم يبتدر العداوة ولم يسع إليها ولم يكن له فيها يد، وهذا وعيٌ بخطورة ذلك الهجاء، وأن نظام القيم سيلحق الخزي بأحدهما: الهاجي أو المهجو؛ إذا خَرَق كلاهما النظام، فإن استطاع الهاجي أن يثبّت شناعة فعل المهجو استطاع أن يجعل النظام يبتره وينفيه؛ في سبيل الحفاظ على المُثُل العليا الحافظة لوحدة الجماعة وتماسكها، وصار هتك الشاعر للقيم ضرورةً للحفاظ عليها! ومن تلك النصوص الشبيهة

(١٢٢) المفضل الضبي، **المفضليات**، ص١٦٢-١٦٣.

بنص ذي الأصبع قول يزيد بن الحكم الثقفي (ت. ١٠٥هـ)، وهو - حسب ما أحصيت - من أواخر من ظهر هجاء ابن العم عنده وفق منظومة قيم القبيلة:

تكاشرني كُرهًا كأنك ناصحٌ
وعينُكَ تُبْدِيْ أنّ صدرَكَ ليّ دَوِي
لِسانُكَ لي أَريٌ وَغَيبُكَ عَلقَمٌ
وَشَرُّكَ مَبسوطٌ وَخَيرُكَ مُلتَوي
أَراكَ اجتَوَيتَ الخَيرَ منّي وَأَجتَوي
أَذاكَ فَكُلٌّ مُجتَوٍ قُربَ مُجتَوَي
عَدُوُّكَ يَخشى صَولَتي إن لَقيتُهُ
وَأَنتَ عَدُوِّي لَيسَ ذاكَ بِمُستَوي
نَداكَ عَنِ المَولى وَنَصرُكَ عاتِمٌ
وَأَنتَ لَهُ بِالظُلمِ وَالغِمرِ مُختَوَي
إذا ما بنى المجد ابن عمك لم تعن
وقلت ألا بل ليت بنيانه خوي(١٢٣)

(١٢٣) أورد أشتاتًا من أبيات القصيدة غير واحد من المدوّنين، ولم أجدها تامة - في تسعة وعشرين بيتًا - كما وجدتها عند أبي علي الفارسي في المسائل البصريات، وزعم أنه قالها في أخيه من أمه وأبيه، وهو ما تنقضه الأبياتُ، معانيها، وأشار إلى ذلك الخلل صاحب الخزانة، وكاد يستوفي الأبيات فأورد منها سبعة وعشرين بيتًا. انظر: أبو علي الفارسي، **المسائل البصريات**، تحقيق: د. محمد الشاطر أحمد محمد، مطبعة المدني (المؤسسة السعودية بمصر)، القاهرة، ط١/١٤٠٥هـ، ١/ ٢٨٤-٢٩٣؛ البغدادي، عبدالقادر بن عمر، **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب**، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٤، ١٤١٨هـ، ٣/ ١٣٢-١٣٤.

ثم لما تقدّم الزمن، واستقرّت المدنية في العصر العباسي، وتفتّت نظام القبيلة أو كاد، تلاشى هجاء ابن العم، فلم أعثر منه إلا على أربعة نصوص، نتفة لابن الرومي الشاعر الهجّاء[١٢٤]، واثنتان لابن بسام، وأكاد لا أعدهما؛ إذ هما بأثر ما سبقت الإفاضة فيه من عُقَد ابن بسام النفسية، كما أنهما من قبيل الهجاء التكسبي، فقد استعطى ابن عمه عيرًا فلم يهده إياه فهجاه بنتفتين إحداهما:

بعثت لأستهديك عيرا فلم تَجُد
ولم أدر أن العير صار لنا صهرا
فوجّه به كي نستوي في ركوبه
فتركبه بطنا وأركبه ظهرا[١٢٥]

وقطعة رابعة لابن العديم (ت. ٦٦٠هـ) لم يقلها هاجيًا ابن عمّ معينًا بل هاجيًا كل ابن عم، محذرا من القريب وشره، وهو ما سبقت الإشارة إليه من أن ابن العم - بل نظام القبيلة كله - لم يعد موجودًا كما كان، أو لم يعد يؤبه له، يقول:

احذر من ابن العم فهو مصحف
ومن القريب فإنما هو أحرف
القاف من قبر غدا لك حافرا
والراء منه ردى لنفسك يخطف

(١٢٤) ابن الرومي، **ديوانه**، ٩٨٧/٣.

(١٢٥) إبراهيم النجار، **من شعر ابن بسام في الهجاء**، ١٦٩/٤؛ وانظر الأخرى في ١٦٠/٤.

واليـــــاء يأس دائم من خـــيـــره
والبــــــاء بغض منـه لا يتكيف
فـاقبل نصيـحتي التي أهديتـهـا
إني بأبناء العـمـومـة أعـرف[١٢٦]

وجـملة القـول إن هـجـاء ابن العم وُجـد حين كـان وجـود الرجل مـرتبطا بـابن عـمـه، وبعـشـيرته، وقَـبـيلتـه، وكل القـيم الاجتماعية التي تتمثّلها، وتشدّ أواصرها، وكان ذلك الهجاء تعـزيزًا لتلك القـيم، ونفيًا لكل مـا قـد يخل بها ويضعضعها، فلمـا تمدّن ابن القـبـيلة، وتكوّنت فـرديتـه، واسـتـقلّ عن أبناء عمومته فلم يعد يحتاج إليهم في شيء تلاشى هجاؤه إياهم، إذ لم تعـد تربطه بهم رابطة وثيـقة، على خلاف هجاء الابن والأب والأخ؛ إذ إن الرابطة لا فكاك منها تحت مظلّة الأسرة لا القبيلة.

النفي: هجاء القريبات

لم أجد هجاء للقريبات ـ الأم والبنت والأخت والعمة وابنة العم ـ إلا نـزرًا يسيـرًا جـدًا لا يكاد يذكـر رغم الاسـتـقـصـاء، فكدت أرد ذلك إلى قيمة (الحفاظ) على النساء أن يهنّ، أو يبتذلن، أو يسبين؛ إذ كيف يمسهن وليّهن بالهجاء في حين أنه هو الموكّل بالحفاظ عليهن من كل سوء؟ يقول عمرو بن كلثوم:

(١٢٦) ياقوت الحموي، **معجم الأدباء**، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٣م، ٥/ ٢٠٩٠.

على آثارنا بيض حسان
نحاذر أن تقسّم أو تهونا
إذا لم نحمهن فلا بقينا
لشيء بعدهن ولا حيينا[١٢٧]

ولكنني حين رددت النظر وجدت العربي ذاته قد هجا زوجته هجاءً مقذعًا في نصوص كثيرة[١٢٨]، لا تعجز طالبها في مواضعها من كتب التراث[١٢٩]، وكثرتها تنفي أن يكون العربيّ قد ترك هجاء نسائه حفاظًا عليهنّ، وغيرةً، إذ أولى ما يكون الحفاظ على الزوجة، ولم يكن هجاء زوجها لها مما يخرق الحفاظ، وعليه فإن هجاءه لبنته وأخته لا يخرق ذلك الحفاظ أيضًا.

فرجعت مرة أخرى إلى تثبيت ما تقدّم من أن القيمة الكبرى الرئيسة الحاكمة علاقة العربي بمحيطه، التي تحكم هذا الهجاء هي (الفرد جزء من الجماعة)، فالنساء ربات بيوت مستقرات، لسن كالرجال يرجى نفعهم نجدةً عند الصريخ، أو بذلاً عند الحاجات؛ ولذا لم يظهر لهن أثر مباشر في تثبيت قيم القبيلة أو توهينها، بل إن الرجل ليفتخر - في الشعر - بمخالفتهن حين يأمرنه بالرذائل

(١٢٧) الأنباري، **شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات**، ص٤٢١-٤٢٤.

(١٢٨) لم أورد شيئًا من هجاء الزوجات هنا؛ لما فيه من مباينة للهجاء المدروس الذي يعتمد على قيم قرابة الدم، وهي مختلفة اختلافًا بينًا عن صلة القرابة بين الزوجين. وقد خصصت هجاء الزوجات ببحث أرجو أن أتمّه قريبًا.

(١٢٩) انظر مثلاً: الخالديان، **الأشباه والنظائر**، ١/٩٤، ٢/٢٩٠-٢٩٢.

كالبخل والجبن!، يقول حاتم طيء (ت. نحو٤٦ ق.هـ) لزوجه وقد هجرته لإتلافه ماله كرمًا:

أماويُّ قد طالَ التجنُّبُ والهجرُ
وقد عَذَرَتني من طِلابِكُمُ العذرُ
أَماويُّ إنَّ المالَ غادٍ وَرائِحٌ
وَيَبقى مِنَ المالِ الأَحاديثُ وَالذِكرُ(١٣٠)

ويقول عروة بن الورد (ت. نحو ٣٠ق.هـ):

أَرى أُمَّ حَسّانَ الغَداةَ تَلومُني
تُخَوِّفُني الأَعداءَ وَالنَفسُ أَخوَفُ(١٣١)

ولكأن الفضائل مقصورة على الرجال، وفي طبع النساء مخالفتها، إنهن كالقيم: محفوظات، والرجل هو الحافظ، يدفع عنهن وعن القيم، ولا يُسْأَلن هن عن الدفاع، ويُهجى إذا أخل بالحفاظ عليهن وعلى القيم، ولا يهجين هن بعدم الحفاظ، يروى للمتلمس (ت. نحو ٤٣ ق.هـ):

خَيرٌ مِنَ القَومِ العُصاةِ أَميرَهُم
- يا قومِ فَاستَحيوا - النساءُ الجُلَّسُ(١٣٢)

(١٣٠) حاتم الطائي، **ديوان شعره**، صنعة: يحيى بن مدرك الطائي، ص١٩٨-١٩٩.

(١٣١) عروة بن الورد، **ديوانا عروة بن الورد والسموأل**، دار بيروت، بيروت، ١٤٠٢هـ، ص٥١ .

(١٣٢) المتلمّس الضُّبَعِيّ، **ديوان شعره (رواية الأثرم وأبي عبيدة عن الأصمعي)**، تحقيق: حسن كامل الصيرفي، معهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية، ١٣٩٠هـ، ص٢١٨.

ويقول عنترة (ت. نحو ٢٢ ق.هـ):

وَهُمُ الحُماةُ إذا النساءُ تَحَسَّرَت
يَومَ الحِفاظِ وَكانَ يَومُ نَزالِ[١٣٣]

بل إن الثقافة تستضعف المرأة في كل حال، وإن أبدت من الحفاظ ما يبدي الرجل، شاهد ذلك القصة الشعرية التي وصف فيها الأعشى (أعشى باهلة) (ت؟) امرأة قتلت عادِيًا على عرضها؛ إذ أسند البطولة والحميّة والغيرة إلى أصول المرأة، والأصولُ رجال!، فقال:

فَلَمّا بَغَاهَا نَفسَهَا غَضِبَتْ لهَا
عرُوقٌ نمَتْ وَسطَ الثرَى فاستَقرّتِ[١٣٤]

وحين وصف ما كان من قتلها إياه لم يرض أن يمحض البطولة (لامرأةٍ)؛ فختم الأبيات بوصف ضعفها!:

فأمّتْ بها في نحرِه وَهوَ يَبتَغي النِّـ
ـكَاحَ فَمَرّتْ في حَشَاهُ وَجَرّت
فَثجّ كأنّ النيلَ في جَوْفِ صَدْرِهِ
وَأدْرَكَهَا ضعْفُ النِّسَاءِ فخَرّتِ

وجملة القول إن المرأة لا ينتظر منها الحفاظ على القيم الضامنة وجودَ الجماعة، التي يهجى بالإخلال بها الرجل،

(١٣٣) عنترة، **ديوانه**، ص٣٣٨.

(١٣٤) السراج، جعفر بن أحمد بن الحسين، **مصارع العشاق**، مطبعة الجوائب، الآستانة، ١٣٠٢هـ، ص٤٩.

فلم يقع هجاؤها، ولم أجده في القرن الأول وما قبله إلا في ثلاثة نصوص، اثنان منهما للحطيئة في أمِّه[١٣٥]! - وقد تقدّم طرف من خبره وأنه موغل في الاستخفاف بالقبيلة وروابطها - والثالث لأعرابي يهجو أمه - أو عجوزا ليست بأمه[١٣٦] - والعجب أنه هجاها بإخلالها بقيمة الكرم:

شائلة أصداغها لا تختمر
تعدو على الضيف بعود منكسر
حتى يفر أهلها كل مفر
لو نحرت في بيتها عشر جُزُر
لأصبحت من لحمهن تعتذر
بحلفٍ ثَجٍّ ودمع منهمر[١٣٧]

وفي نهاية القرن الأول أو بداية الثاني نجد ثلاثة نصوص لعمرو بن أمية بن عمرو (الأشدق) بن سعيد بن العاص (ت؟)

(١٣٥) انظر: الأصبهاني، **الأغاني**، ١٦٢/٢-١٦٣.

(١٣٦) ذكر البكري صاحب اللآلي أن هذه الأبيات في صفة عجوز، وأوردها في تسعة أبيات، على خلاف القالي الذي لم يورد منها إلا بيتًا واحدًا لم يبيّنه، وعلى خلاف التوحيدي الذي أورد منها الأبيات الستة المثبتة أعلاه، وزعم أنها في هجاء الأم، وواطأه ابن حمدون. وإني أرتاح لرأي البكري؛ لأنه استوفى الأبيات، وعليه تكون الأبيات خارج هذا البحث.

(١٣٧) القالي، **الأمالي**، ١٠٣/١؛ أبو حيان التوحيدي، **البصائر والذخائر**، ١٨٥/٦؛ عبدالعزيز الميمني، **سمط اللآلي (المحتوي على اللآلي في شرح أمالي القالي لأبي عبيد البكري)**، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٥٤هـ، ٣١٦/١؛ ابن حمدون، **التذكرة الحمدونية**، ١٧٧/٥-١٧٨.

يهجو فيهن عمته ويرميها بمتطبب نصراني يقال له وهب ، منها[١٣٨]:

لا بارك الرحمن في عمتي

ما أبعد الإيمان من قلبها

تلك أم موسى بنت عمرو التي

لم تخش في القسيس من ربها

ثم وجدت بعد ذلك ثلاثة نصوص أيضًا أحدها لأبي العباس أحمد بن عيسى التموزي (ت؟) يذمّ حماته[١٣٩]، والآخران للجزار (ت. ٦٠٦هـ) في زوجة أبيه[١٤٠]، وكل هذه النصوص إذا استثنينا نص الأعرابي الأول - المشكوك فيه! - لا تشبه هجاء الأقارب من جهة النظر إلى القيم القبليّة، والانطلاق في الهجاء منها، بل هي هجاء يشبه سائر الهجاء في معانيه وبواعثه، كما أن هجاء الحماة وزوجة الأب ليس معدودا في هجاء القريبات برابطة الدم والقبيلة.

وإنني إذ سميت عنوان هذه الفقرة (النفي) إنما قصدت إلى أن ترك هجاء المرأة هجاءً قَبَلِيًا يوحي بنفيها من القبيلة،

(١٣٨) انظر هذا النص والنصين الآخرين: المرزباني، **معجم الشعراء**، ص٥٢.

(١٣٩) الأصبهاني، عماد الدين، **خريدة القصر وجريدة العصر - قسم شعراء الشام**، تحقيق: د. شكري فيصل، مطبوعات المجمع العلمي العربي/ المطبعة الهاشمية، دمشق، (ج٢، ١٣٧٨هـ)، ٣٩٣/٢.

(١٤٠) النصان في: الكتبي، **فوات الوفيات**، ٢٩٢/٤.

وأن العقل التخييلي العربي لا ينظر إليها ضمن إطار القبيلة الضامن لأفرادها، الحامي لقيمها؛ ولذلك لا يهجوها، ولا عجب فإن المرأة تنفي كلَّ رجل ينتسب إليها من أن ينتسب إلى نسبها، فابنها ابن البعيد:

بنونا بنو أبنائنا وبناتُنا

بنوهنّ أبناء الرجال الأباعد(١٤١)

وأخوها خالٌ لأبنائها ولكنه لا ينتسب إليهم ولا ينتسبون إليه، بل إن المفزع إلى الأب والعم وابن العم وغيرهم ممن لا يعوق النسب إليهم امرأة، يقول النمر بن تولب (ت. ١٤هـ):

إذا كنت في سعد وأمُّك منهمُ

غريبا فلا يغررْكَ خالُك من سعدِ

فإن ابن أخت القوم مصغىً إناؤه

إذا لم يزاحم خاله بأب جلد(١٤٢)

وإذا رأيتَ في الشعر افتخارا بشرف الخال فلا يخدعك؛ فإنما يقال لدفع الهجنة، وتأكيد نقاء دم القبيلة في ذات الشاعر، وخاصة إذا كانت والدته من خارج القبيلة، فكأن الخال موضع تهمة، تتسلل الهجنة من خلاله إلى القبيلة!

(١٤١) الجاحظ، **الحيوان**،١/٣٤٦.

(١٤٢) ابن قتيبة، **الشعر والشعراء**، ١/٣٠٠.

وتجلّيًا لهذه الثقافة فإن من معاني هجاء الأقارب الذكور أن يُنْفَوا إلى ما وراء النساء، فيهجى الرجل بأمه وبقبيلتها، ويوصف بأن الضعة والنقص ما لحقاه إلا من جهتها، وبأثرها، أما قريبه الهاجي وقبيلته فهم المبرؤون الموفورون؛ ينفون هذا المهجو احتيالاً على الثقافة حتى لا يدرك قبيلتهم النقص من انتساب هذا الناقص إليها، وأمثلة هذا (النفي) كثيرة جدا منسربة في بعض النصوص التي استشهدنا بها، ومن ذلك قول حسان بن ثابت (ت. ٥٤هـ) في ابنه:

غلام أتاه اللؤم من شطر خاله

له جانبٌ وافٍ وآخرُ أكشمُ(١٤٣)

وقول كعب الأشقري (ت. ٨٠ هـ) يهجو ابن أخيه؛ وكانت أمه سوداء:

إن السواد الذي سُرْبِلت نعرفه

ميراث جدك عن آبائه النوبِ

أشبهت خالك خالَ اللؤم مؤتَسيًا

بهديهِ سالكًا في شر أسلوبِ(١٤٤)

وقول القُلاَخ بن حزن (ت. بعد ٧٥هـ) في ابنيه:

ويا ضيعة الماء الذي لم أجد له

قرارا ولم أنجب له حسبا جزلا

(١٤٣) حسان بن ثابت، **ديوانه**، دار صادر، بيروت، ص٢٤٠.

(١٤٤) الأصفهاني، **الأغاني**، ٢٩٨/١٤.

ثعالب غُبْسا لم تكن أمهاتها

كأمي ولا آباؤهم كأبي فحلا[١٤٥]

وبناء عليه فإني أرجح أن بعض الشتائم المشتهرة آنذاك كقولهم: (يا ابن اللخناء) و (يا ابن السوداء) و(يا ابن حمراء العجان) وما شابهها من النسبة إلى الأم واستنقاصها إنما كانت نتاج سباب أبناء العمومة الذين لا يستطيعون استنقاص بعضهم بآبائهم؛ فينسبون النقص إلى الأمهات.

الخاتمة:

مما لحظته في هذا اللون من الهجاء أن حضوره تثبيتٌ لقيمة المهجو في منظومة القيم، وغيابه سلبٌ لتلك القيمة ! فكلما كان القريب ذا قيمة وجودية كثر هجاؤه حفاظًا على تلك القيمة، وكلما هان أمره ضعف هجاؤه وقلّ، وعليه لا يصح أن نستنتج من غياب هجاء القريبات أو الأخوال[١٤٦] أو أبنائهم أن قيمتهم تفوق قيمة الأعمام وأبنائهم المهجوّين، بل

(١٤٥) أبو عبيدة معمر بن المثنى، **العقفة والبررة**، ص٣٦٥.

(١٤٦) لم أجد في هجاء الأخوال إلا نصين اثنين، أولهما لعروة بن الورد، مطلعه:

ما بِيَ مِن عارٍ إخالُ عَلِمتُهُ

سِوى أَنَّ أَخوالي إِذا نُسِبوا نَهدُ

والآخر لابن ميادة :

إن تك خالنا فقُبِّحْتَ خالاً

فأنت الخال تنقص لا تزيد

انظر: عروة بن الورد، **ديوانا عروة بن الورد والسموأل**، ص٢٦؛ الأصبهاني، **الأغاني**، ٢٦٨/٢.

إن الثقافة لا تهجوهم لأنها لا تنتظر منهم حضور شيء ولا تستنكر منهم غيابه!

وأشير إلى أن هجاء القبيلة والأقارب في القرن الأول وما قبله لم يكن في غالبه هجاء منقلبا على قيمة (الفرد جزء من الجماعة) بل يعززها، ويسوؤه تضعضعها، وربما احتال عليها إذ لا يستطيع مجابهتها، ولكن الشاعر العباسي المتمدّن الفرد في القرن الهجري الثاني وما بعده على خلاف ذلك!

وأشير إلى أن بعض نصوص القرن الثاني وما بعده لا تمثل موقفا فكريا ثابتا ، بل انفعالات عاطفية عابرة، تشكّل مظاهر تخرق القيم، وأن العوامل النفسية، والعقد المكبوتة تتدخّل في بواعث الهجاء ومحرّكاته، وهي عوامل فردية معزولة ليس لها علاقة بقيم الجماعة، ولكن ما يجعلها مسيسةَ الصلة بهذا البحث أن القيم إذا كانت متماسكة تمارس سلطتها على الشعراء فتزجرهم عن هذا الهجاء مهما كانت عقدهم الفردية، وإذا تضعضعت في المجتمع تضعضعت في لاوعي الشاعر (الأنا العليا) فصار يخرج على سلطتها، وخاصة أن القيم الجماعية تتعارض مع فردية الفرد التي تتشكّل آنذاك وتتعزّز.

وأؤكد أن التحوّلات التي رصدتها في هذا الشعر من القيم القبلية الجماعية إلى القيم المدنية الفردية لم تكن إلا بوادر توحي بتضعضع الأولى وتراجعها ونشوء الثانية واشتدادها شيئًا فشيئًا، وليست انقلابًا كاملاً وتغيّرًا عاصفًا لم يُبْقِ من النُّظُم القديمة شيئًا، فقد ظلّت تلك النُّظُمُ حيّةً تحملها اَللغة

وتحميها، وربما اضطر الشعراء إلى مهادنتها أو الاحتيال عليها؛ ليقولوا ما يناقضها.

وإن الهجاء لهو رغبة في تأسيس عالم فردي أكثر مما هو عالم فردي حقيقي، فالشعر عبر التاريخ يسعى إلى خرق النواميس، ولكنه ليس هو من يحقق خرقَها خرقًا تامًا، أو قلبَها وإعادة تشكيلها، وهذه قيمته، وإلا تحوّل إلى فكر موضوعي لا شعر، إنه تراشح وتفاعل بين السائد ونزعات التمرّد عليه.

وأشير إلى أن فضاء التلقي في العصر العباسي أولع بالظواهر الشعرية الشاذة، واتخذها متعة، فقوّى تلك الشذوذات، ومنها هجاء الأقارب في بعض نصوصه.

ولقد انبنى داخل القيم نظام حماية يعزّزها منه أن القيم - مهما كانت راسخة - إذا تعارضت تلغي العليا منها الدنيا؛ في سبيل تثبيت القيمة الأهم. ولذلك صار هجاء القبيلة التي لم تحم أفرادها مشروعًا غير منبوذ في سبيل تعزيز قيمة (الفرد جزء من الجماعة) وهي القيمة العليا التي تضمن حماية القبيلة لأفرادها، وحماية الأفراد إياها، فإذا أخلت القبيلة بذلك استحقّت الهجاء، أما إذا هجا الشاعر قبيلته دونما علّة مشروعة - كما فعل الحطيئة - فإن الثقافة تشنّع عليه. وكذلك تبيح الثقافة هجاء الأبناء إذ مسّوا قيمة (الأب)؛ لأن تلك القيمة تمثّل الحفاظَ على أجزاء القبيلة (الأُسَر) وتوارثَ الأعراف والقيم، وهي أعلى وأهم من قيمة

الحفاظ على أفراد القبيلة (الأبناء). وفي المقابل فإن ذات الثقافة لا تبيح هجاء الآباء وإن ضارّوا أبناءهم ؛ لأن قيمتهم هي الأعلى. ثم لما تضعضعت الثقافة القبلية في القرن الثاني وما بعده لم يعد يعبأ الشاعر بكل تلك القيم وأنظمتها، فصار يهجو أقاربه الأدنين لأدنى سبب.

وربما يثور هنا سؤال عن محل القيم الإسلامية التي تعظم قيمة الأقارب، وخاصة الأب، وذوي الرحم الأقربين، تلك القيم التي قويت جدًّا حين ضعفت قيم القبيلة، فلِمَ لمْ تزجر الشعراء عن الهجاء كما زجرتهم قيم القبيلة ؟

وجوابه أن القيم القبلية قيم يتعلق بها مصير الفرد في الحياة الدنيا، فإذا أخلّ بها اختلّ معاشه، ونُبذ معنويًا أو حسيًا، وإذا اختلّت تلك القيم لم يأمن الفرد في بيتَه، ولا سفره، ولا حين غناه وفقره، أما القيم الإسلامية فإنها تعزز الجانب الخلقي في ضمير كل فرد، وتعده بالثواب والجنة ورضا الله، فإذا ضعف هذا الإيمان عند الشاعر وأراد اختراق قيمة ما فإنه لن يضارّ نفسه ضررًا ملموسًا في الدنيا، على خلاف قيم القبيلة التي تعجّل عقوبة مخترقها، وهكذا فإن القيم الإسلامية تعزّز قيم الأخوة في الدنيا والائتلاف الاجتماعي والتكافل، وتعزز أيضًا الفرديّة، وتعتق كل فرد من مغبة جريرة الفرد الآخر مهما قرب منه ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾(١٤٧)، وتمنح الفرد حريّة الاختيار ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾(١٤٨)،

(١٤٧) سورة الزمر، الآية (٧).

(١٤٨) سورة الكهف، الآية (٢٩).

ولكنه اختيار سيتعلق به المصير الأخروي، وهو مصير قد يتناساه بعض الشعراء حال الهجاء. ومن ناحية أخرى "فإننا نجد أن هؤلاء القوم - وهم يملكون ديناً مثاليًا - نجدهم يتخذون لأنفسهم نماذج أخرى للمفاضلة الثقافية، وهي نماذج لا تختلف عن المثالية الدينية فحسب، بل إنها تناقضها!"(١٤٩).

(١٤٩) عبدالله الغذامي، **القبيلة والقبائلية: أو هويات ما بعد الحداثة**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء وبيروت، ط١، ٢٠٠٩م، ٧٤.

دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب
من الإحياء والإصلاح
إلى الجهاد العالمي

تأليف

د. ناتانا دي لونج باس

ترجمة

د. عبدالله بن إبراهيم العسكر

٦٦٠ صفحة

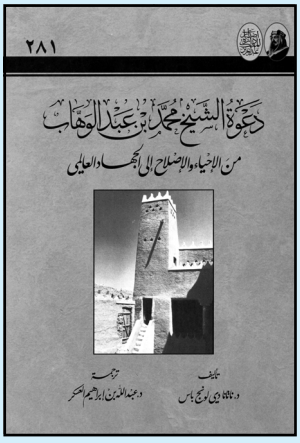

يمهد بالتعريف بدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب الإصلاحية. ويذكر الاتجاهات الثقافية في القرن الثامن عشر الميلادي، ثم يغوص في دراسة الدين والرؤية العالمية عند الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ويبين أن توحيد الله بالعبادة مبدأ راسخ لديه، ثم يؤكد الكتاب اتفاق مؤلفات الشيخ وفتاواه مع ما ينص عليه الدين الإسلامي.

ويفند الكتاب التهم الموجهة لدعوة الشيخ من خصومه بأنها متعصبة، فلم يكن العنف والقتل من وسائل تحقيق أهدافها، بل تؤكد استخدام المنهاج الرباني المبني على الدعوة بالتي هي أحسن، كما يتطرق إلى اهتمام الشيخ بموضوع المرأة، وإيمانه بدورها في المجتمع، وتأييده لحفظ جميع حقوقها التي نص عليها الدين الإسلامي الحنيف.

إصدارات دارة الملك عبدالعزيز

الدارة

ص.ب ٢٩٤٥ - الرياض ١١٤٦١ - المملكة العربية السعودية
هاتف ٤٠١١٩٩٩/٢١٦٤ - فاكس ٤٠١٣٥٩٧
بريد إلكتروني info@darah.org.sa